كارلوس رويث ثافون

مدينةٌ من بُخار

الأعمال القصصيّة الكاملة

ترجمة: معاوية عبد المجيد

منشورات الجمل

قصص

اهداء

لنادي قراءة الجامعة

لقد وجدنا في رسائلكم أنيسا ..

كالذي وجدتموه في الكتاب

طبتم وطابت صداقتكم

دمتم بخير

أحمد

معاوية عبد المجيد: مترجم سوري من مواليد دمشق عام ١٩٨٥. درس الأدب الإيطالي في جامعة سيينا الإيطالية. علّم اللغة الإيطالية في كلية الآداب في جامعة دمشق. حصل على درجة الماجستير في الثقافة الأدبية الأوروبية عن قسم الترجمة الأدبية من جامعة بولونيا الإيطالية وجامعة مولوز الفرنسية. نشر عدة مقالات عن الشعر الإيطالي في عدد من المجلات. ترجم إلى العربية: **ضمير السيد زينو**، إيتالو سفيفو، ٢٠١٣؛ **تريستانو يحتضر**، أنطونيو تابوكي، ٢٠١٣؛ **بيريرا يدعي**، أنطونيو تابوكي، ٢٠١٤؛ **اليوم ما قبل السعادة**، إري دي لوكا، ٢٠١٤؛ **آخذك وأحملك بعيدا**، نيكولّو أمانيتي، ٢٠١٦؛ **ظلّ الريح**، كارلوس زافون، ٢٠١٦؛ **لعبة الملاك**، كارلوس زافون، ٢٠١٧؛ **سجين السماء**، كارلوس زافون، ٢٠١٩؛ **متاهة الأرواح**، كارلوس زافون، ٢٠٢٠.

كارلوس رويث ثافون: **مدينةٌ من بُخار**، قصص، الطبعة الأولى
ترجمة: معاوية عبد المجيد

Carlos Ruiz Zafón: *La Ciudad de Vapor*

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

كارلوس رويث ثافون

مدينةٌ من بُخار

الأعمال القصصيّة الكاملة

ترجمة: معاوية عبد المجيد

منشورات الجمل

إنّ هذا الكتاب هو من صنع المخيّلة. ومثلما حدث في المداخل الأربعة لـ «مقبرة الكتب المنسيّة» - الملحمة التي تدور هذه القصص في أجوائها - فإنّ «مدينة من بخار» غالبًا ما تستلهم من برشلونة، حتّى لو أجرى الكاتب تغييرات في الشكل العامّ والتسلسل الزمنيّ لبعض المشاهد والمنتجات والظروف، بما يتلاءم وضرورة المنطق السرديّ.

وبعد قليل، يتلاشى الأب وابنه مثل طيفين من بخار، ويغيبان في زحام لاس رامبلاس، بينما تذوب أصداء خطواتهما إلى الأبد في ظلّ الريح.

ظلّ الريح

كلمة المحرِّر

بعد إنجازه رائعةَ حياته، «مقبرة الكتب المنسيّة»، بإصدار الرواية الأخيرة من الرباعيّة «متاهة الأرواح» في نوفمبر من العام ٢٠١٦، كان كارلوس رويث ثافون عازمًا في عمله القادم على توحيد قصصه بكتابٍ واحد. الفكرة هي أن يضع كلّ قصصه بمتناول قرّائه، سواء أكانت تلك التي نشرها في أشكالٍ مختلفة، بإصداراتٍ منتظمة أو متفرّقة رافقت طبعات خاصّة من روايات الرباعيّة، أم تلك الأخرى التي لم تحظَ بالنشر.

ومن أجل ذلك، ائتُمِنَ هذا المحرِّر على القصص التي ترى النور هنا للمرّة الأولى، وأوكل إليه مهمّة استعادة الأجزاء المنشورة سلفًا بغية التجهيز لكتابٍ لا ينبغي أن يكون مجرَّد تجميعٍ لكلّ قصصه. ومع ذلك، ونظرًا إلى اقتراب إصدار ذروة الرباعيّة أوّلًا وبسبب مرض الكاتب ثانيًا، نُصِحنا بإرجاء هذه الطبعة.

كان كارلوس رويث ثافون يتصوَّر هذا العمل بمثابة امتنانٍ يقدِّمه لقرّائه الذين واظبوا على متابعته طوال الملحمة بدءًا برواية

«ظلّ الريح». واليوم، نظرًا إلى نشر الكتاب بعد وفاته، يصبح من تلقاء نفسه تكريمًا من دار النشر إلى كاتبها، واعترافًا سينضمّ إليه بلا شكّ قرّاءُ واحدٍ من أكثر المؤلّفين تقديرًا في زماننا.

«مدينة من بخار» هي امتدادٌ للعالم الأدبيّ الذي دارت «مقبرة الكتب المنسيّة» في فلكه، سواءٌ من حيث تطوُّر جوانب مجهولة لبعض الشخصيّات، أم من حيث التعمُّق في تاريخ بناء المكتبة الأسطوريّة، ومن حيث إنّ الموضوعاتِ والدوافعَ وأجواءَ هذه القصص مألوفةٌ لدى قرّاء الملحمة. كُتّابٌ ملاعين، معماريّون حالمون، هويّاتٌ مُنتَحلة، أبنيةٌ عجائبيّة، سلاسةٌ في الوصف شديدةُ الإغراء، براعةٌ في نسج الحوار... ولا سيّما الوعد الذي تقطعه الحكاية، والقصّة، وفعل السرد بحدّ ذاته، باصطحابنا إلى عالمٍ جديدٍ ومذهل.

بدءًا من «بلانكا والوداع»، القصّة التي تفتتح هذا الكتاب، وانتهاءً بـ«القيامة في دقيقتين»، على شاكلة الفراق، تتعشّق الحكايات من خلال الصوت السرديّ، والتسلسل الزمنيّ والتفاصيل، لكي ترسم لنا عالمًا يمتثل زاخرًا أمام أعيننا، بقدر ما هو عالمٌ تخييليّ، وكونٌ من بخار.

أمّا من حيث الأنماط الأدبيّة، فإنّ «مدينة من بخار» تقدِّم عيّنةً من مهارة كارلوس رويث ثافون في بناء أدبٍ متميّزٍ ومتفرّد، نرى فيه ملامح رواية النشوء، ورواية الإثارة، والرواية التاريخيّة، والقوطيّة، والرومانسيّة، من دون أن تغيب عنها لمسته الفنيّة المبهرة لنموذج الحكاية داخل الحكاية.

لكنّنا لن نطيل عليك أيّها القارئ العزيز. ربّما لا حاجة للإيضاحات التي تتجاوز القيمة والاعتراف اللذين أحرزهما عملُ مؤلّفٍ ما، عندما يكون هذا المؤلّف قد خلق توصيفًا من قبيل: ثربانتيّ، ديكنزيّ، بورخيّ... فمرحبًا بكم في كتابٍ ثافونيٍّ جديد - والأخير مع الأسف.

إميل دي روزييه كاستيلان

الفهرس



بلانكا والوداع

(من ذكرياتٍ لم تقع قطّ لرجلٍ يُدعى دافيد مارتين)

1

لطالما حسدتُ بعضَ الأشخاص الذين يتمتّعون بالقدرة على النسيان ويرون أنّ الماضي ما هو إلّا تبدُّلُ الفصول، أو حذاءٌ قديمٌ يكفي أن يُزَجَّ به في قعر الخزانة لجعله عاجزًا عن استئناف الخطوات الضائعة. أمّا أنا فقد ابتُليتُ بلعنة الذكرى: أتذكّر كلَّ شيء، وكلُّ شيءٍ يتذكّرني بدوره. أذكر طفولتي المبكرة التي استباحها البردُ وضيَّقتها العزلةُ، أذكر اللحظات الميّتة التي أمضيتُها في تأمُّل رماديّةِ الأيّام الكئيبة وتلك المرآةِ السوداء التي سحرت نظرةَ والدي. لا أحتفظ بذكرى أيّ صديقٍ تقريبًا. بوسعي استحضار وجوه أطفال حيّ ريبيرا الذين لعبتُ وتشاجرتُ معهم في الطريق أحيانًا، لكنّي لا أرغب في استرجاع وجه أيٍّ منهم من جحيم اللامبالاة. لا أحد، ما عدا وجه بلانكا.

كانت بلانكا تكبرني بعامين. عرفتُها ذات يومٍ من شهر أبريل أمام بوّابة بيتي بينما كانت تمشي ممسكةً بيد الخادمة المنزليّة وهي ذاهبةٌ لاستلام كتبٍ من مكتبة أثريّاتٍ صغيرة قبالة

المسرح قيد الإنشاء. وشاء القدر ألّا تفتح المكتبةُ أبوابها في ذلك اليوم قبل منتصف النهار، فأتاح فجوةَ انتظارٍ من ثلاثين دقيقةٍ كان مصيري سيتحدّد في خلالها، بلا أيّ شكّ من جانبي. ولو خُوِّل الأمرُ إليّ، لما غامرتُ في تبادل الحديث معها. إذ إنّ عطرَها الشذيَّ، وسلوكَها النبيلَ الذي ينمّ عن ثرائها، وهندامَها المصفَّحَ بالحرير والتُّلّ، لا يفسح المجال للشكّ بأنّ هذه الطفلة لا تنتمي إلى عالمي، ولا أنا أنتمي إلى عالمها. لم يكن يفصل بيننا في الطريق سوى بضعة أمتار، ولكنْ باعدتنا أميالٌ شاسعةٌ من قوانينَ غير مرئيّة. اقتصرتُ على التأمُّل فيها مثلما يُعجَب المرءُ بالمقدَّسات المرتّبة في خزانةٍ زجاجيةٍ، أو على رفوف إحدى تلك الدكاكين التي تبدو له مشرعة الأبواب، لكنّه يعلم يقينًا أنّه لن يجتاز عتباتها في حياته أبدًا. وغالبًا ما فكّرتُ في أنّني لولا إصرار والدي وحرصه على نظافتي الشخصيّة، لما انتبهت إليّ بلانكا إطلاقًا. كان رأيه أنّه قابل أثناء الحرب من القذارة ما يكفي لملء تسع حيوات، وعلى الرغم من أنّنا كنّا أفقر من فأر المكتبة، فقد علّمني منذ الصغر أن أتآلف مع الماء المتجمّد الذي ينبثق من صنبور المغسلة ساعةَ أراد، ومع أقراص الصابون التي تنبعث منها روائحُ المطهّرات والتي تزيل حتّى آثار الندم. وهكذا حدث أنّ الداعي، داڤيد مارتين، الذي أتمّ الثامنة توًّا، البائس الأنيق والطامح الواعد ليصبح أديبًا من الدرجة الثالثة، استطاع أن يشحذ قواه الذهنيّة لئلا يشيح أبصاره عندما حطّت عليه عينا تلك الصبيَّة المنحدرة من عائلة عريقة،

وابتسمت له ابتسامةً خجولة. كان والدي يقول لي دائمًا إنّنا في هذه الحياة لا بدّ أن نبادل الناسَ بذات العملة التي يدفعون بها لنا. كان يحيل على اللكمات وأشكال الغطرسة الأخرى، لكنّني قرّرتُ اتّباع تعاليمه وأن أردّ على تلك البسمة، وأن أضيف إليها لمحةً طفيفةً من القبول على سبيل البقشيش. فكانت هي التي بادرت بالاقتراب بخطوة متباطئة، والنظر إليّ من أعلى إلى أسفل. مدّت يدها، لم يخصّني أحدٌ بتلك الحركة في حياتي، وقالت:

- اسمي بلانكا.

كانت بلانكا تمدّ يدها مثل السيّدات في كوميديا الصالون، إذ تجعل راحة يدها إلى أسفل، برهافة العذارى الباريسيّات. لم أدرك أنّه من الواجب أن أنحني إليها وألثمها بشفتيّ، فإذا هي تسحب يدها وتقوِّس حاجبها.

- أنا دانيد.

- وهل أنت قليل الأدب دائمًا؟

كنت أعمل على مَخرجٍ بلاغيٍّ يصوِّب وضع جلافة الرعاع الذي كنتُ عليه، بابتكار حيلةٍ مذهلة تحفظ ماء وجهي، عندما اقتربت الخادمة بملمحٍ مذعورٍ ونظرت إليّ مثلما يُنظَرُ إلى كلبٍ مسعور يتجوّل بكامل حرّيّته في الطريق. كانت الخادمة امرأةً شابّةً تتميّز بمظهرٍ صارمٍ وعينين سوداوين عميقتين لا تبديان أيّ استلطافٍ تجاهي. أمسكت ببلانكا من ذراعها وأبعدتها عن متناولي.

- مع مَن تتحدّثين يا آنسة بلانكا؟ ألا تعلمين أنّ والدكِ لا يحبّ أن تتحدّثي مع الغرباء؟

- هو ليس غريبًا يا أنتونيا. هذا صديقي داڤيد. ووالدي يعرفه.

وقفتُ متحجّرًا بينما كانت الخادمة تنظر إليّ شزرًا.

- داڤيد ماذا؟

- داڤيد مارتين. بخدمتكِ يا سيّدتي.

- أنتونيا لا يخدمها أحد يا داڤيد. إنّما هي التي تخدمنا. أليس كذلك يا أنتونيا؟

وفي أقلّ من ثانية، طوى وجهَ أنتونيا تعبيرٌ لم يكن لأحدٍ غيري أن يلاحظه إذ كنتُ أنظر إليها باهتمام. رمت الخادمةُ نظرةً عابرةً وظليمةً إلى بلانكا، نظرةً مسمومةً بالحقد جمَّدت الدماءَ في عروقي، وسرعان ما حجبتها بابتسامةٍ راضخة وهزّت رأسها كمن يسعى إلى التقليل من شأن المسألة.

- أولاد. - غمغمت خلسةً وهي تبتعد عائدةً إلى المكتبة التي كانت تفتح أبوابها آنذاك.

أشارت بلانكا للجلوس على عتبة البوّابة حينها. حتّى الأجلاف الذين على شاكلتي يعلمون أنّ ذلك الفستان لا يمكن له أن يمسّ الموادّ البائسة والمكسوّة بدقيق الفحم كالتي بُني منها بيتي. فنزعتُ سترتي المكتظّة بالرقع وبسطتُها على الأرض كما لو كانت حصيرة. جلست بلانكا على أفضل ثيابي وتنهّدت،

وهي تراقب الطريق ومَن يمرّ فيه. ولم تغفل عين أنتونيا عنّا من مدخل المكتبة، وكنتُ أتظاهر بأنّني لا أنتبه إليها.

- هل تسكن في هذه الأنحاء؟ - سألتني بلانكا.

أشرتُ إلى المبنى المجاور وأومأتُ بنعم.

- وأنتِ؟

نظرت إليّ كما لو أنّه أغبى سؤال تلقّته في حياتها القصيرة.

- لا طبعًا.

- ألا يعجبكِ الحيّ؟

- رائحته مقزّزة، معتمٌ، وبارد، وسكّانه قباح ويُصدِرون الضجّة.

لم يخطر في بالي قطّ أن ألخّص العالمَ المعروف بالنسبة إليّ بتلك الطريقة، لكنّي لم أجد حججًا راسخةً تدحض رأيها.

- ولماذا تأتين إلى هنا؟

- لوالدي بيتٌ قربَ سوق بورن. أنتونيا تأخذني إليه كلَّ يومٍ تقريبًا.

- وأنتِ، أين تسكنين؟

- في ساريا، مع أمّي.

حتّى البسطاء أمثالي سمعوا باسم ذلك المكان، لكنّ الحقيقة هي أنّني لم أزره على الإطلاق. كنتُ أتخيّله مثل حصنٍ من القصور ودروب الزيزفون والعربات الفاخرة والحدائق الغنّاء، عالمٌ مأهولٌ بأشخاصٍ كتلك الطفلة، سوى أنّهم أطول منها قامةً. ما من شكّ أنّ عالمها متضوِّعٌ بالعبير وزاخرٌ

بالضياء، يعانق النسائم المنعشة ويعيش فيه مواطنون هادئون وحِسانُ المظهر.

- وما سبب أنّ أباكِ يسكن هنا لا معكم؟

تردّدت بلانكا وأشاحت نظرها. بدا أنّ الموضوع يضايقها فآثرتُ عدم الإلحاح فيه.

- مجرّد فترة. - أضافت. - سيعود إلى بيتنا قريبًا.

- بالتأكيد. - قلت من دون معرفة مطلقة عمّا كنّا نتحدّث، لكنّي اتّخذتُ نبرة التعاطف التي يتقنها مَن يولد مهزومًا وبارعًا في توصية غيره بالتسليم. - ريبيرا ليست سيّئة إلى هذا الحدّ. سترين. ستعتادين.

- لا أريد اعتيادها. لا أحبّ هذا الحيّ، ولا أحبّ البيت الذي اشتراه والدي. ليس لديّ أصدقاء هنا.

بلعتُ ريقي.

- بوسعي أن أكون صديقكِ، إن أردتِ.

- ومَن تكون أنت؟

- داڤيد مارتين.

- سبق أن قلتَ هذا.

- أتصوّر أنّني أيضًا بلا أصدقاء.

التفتت بلانكا ونظرت إليّ بمزيجٍ من الفضول والارتياب.

- لا أحبّ لعبة الغمّيضة ولا الكرة. - حذّرتْ.

- ولا أنا.

ابتسمت ومدّت يدها ثانيةً. فطوَّعتُ كلَّ جهودي لتقبيلها هذه المرّة.

- هل تحبّ الحكايات؟ - سألتني.

- هذا أكثر ما أحبّه في الحياة.

- أعرف بعضًا من الحكايات لا يعرفها إلّا قلّةٌ من الناس.

- قالت - والدي يكتبها من أجلي.

- أنا أيضًا أكتب الحكايات. أقصد أنّني أبتكرها ثمّ أحفظها عن ظهر قلب.

قطّبت بلانكا جبينها.

- سنرى. اروِ لي حكاية.

- الآن؟

أومأت بلانكا، بملامح التحدّي.

- آمل ألّا تتحدّث عن أميراتٍ صغيرات. - هدّدت. - فأنا أكره الأميرات الصغيرات.

- حسنًا، الحكاية تتحدّث عن أميرة... لكنّها شرّيرةٌ للغاية.

أشرق وجهها.

- شرّيرةٌ، إلى أيّ مدى؟

2

في ذلك الصباح، غدت بلانكا قارئتي الأولى، جمهوري الأوّل. رويتُ على مسامعها بأفضل ما استطعتُ حكايتي عن أميراتٍ وعن مشعوذات، عن شرورٍ وقبلاتٍ مسمومة في كونٍ قائمٍ على التعويذات والأبنية الحيّة التي تزحف مثل وحوش الجحيم في أغوار عالمٍ من الظلمات. وفي نهاية السرد، عندما تغرق البطلة في بحيرة سوداء متجمّدة المياه تحمل في يديها وردةً ملعونة، حدّدت بلانكا مسار حياتي إلى الأبد، إذ ذرفت دمعةً وتأثّرت روحُها التي تخلَّصت من زيف الحسب والنسب، وغمغمت بأنّ قصّتي تبدو لها باهرة. وددتُ أن أضحّي بحياتي كلّها على ألّا تتبدّد تلك اللحظة أبدًا. كان ظلُّ أنتونيا يتمدّد على أقدامنا فأعادني إلى الواقع التافه.

- هلّا ذهبنا يا آنسة بلانكا، فأبوكِ لا يحبّ أن نتأخّر عن الغداء.

انتزعتها الخادمة منّي واقتادتها إلى أسفل الطريق، لكنّي ما لبثتُ أنظر إلى عينيها حتّى غاب وجهها ورأيتُها تودّعني بيدها. حملتُ سترتي وارتديتُها من جديد، فأحسستُ أنّ دفء بلانكا ورائحتها يحتويانني. ابتسمتُ في سرّي، وشعرتُ بالسعادة للمرّة الأولى في حياتي، مع أنّ الشعور لم يدم إلّا ثوانيَ قصيرة، وأدركتُ أنّ وجودي سيتغيّر، آنذاك وقد تذوّقتُ ذلك السمّ.

وفي المساء، وبينما كنّا نتعشّى خبزًا بالحساء، رماني والدي بنظرةٍ قاسية.

- أراك مختلفًا. هل وقع شيءٌ ما؟

- لا يا أبتِ.

خلدتُ إلى النوم باكرًا، هربًا من مزاج أبي المتكدّر. واستلقيتُ تحت الظلام وأنا أفكّر في بلانكا، وبالقصص التي أردتُ أن أؤلّفها من أجلها، وفطنتُ إلى أنّني لا أعرف أين تسكن، ولا متى سألقاها مرّةً أخرى، في حال تسنّى اللقاء.

أمضيتُ الأيّام التالية وأنا أبحث عن بلانكا. فما إن يغفو والدي بعد الغداء، أو يغلق باب غرفته ويسلِّم نفسه لنسيانه الخاصّ، كنتُ أخرج وأتّجه نحو المنطقة السفلى من الحيّ لأجوب الأزقّة الضيّقة والمعتمة التي تحيط بجادّة بورن، مؤمّلًا في ملاقاة بلانكا أو خادمتها المشؤومة. حتّى إنّني حفظتُ كلَّ انحناءات وظلال متاهة الطرقات تلك التي بدت جدرانها يلتئم بعضُها ببعض لكي تنغلق على نفسها في شبكة أنفاق. فكانت الشوارع القديمة التي تحتضن النقابات القروسطيّة تشكِّل عقدةً من الدهاليز تبدأ بكاتدرائيّة سانتا ماريّا دل مار وتتشابك في وصلةٍ من الممرّات والأقواس والمنحنيات المستحيلة التي يتغلغل فيها ضوء الشمس بمشقّة بضع دقائق خلال النهار كلّه. كما تؤشّر منحوتاتُ الغراغيل النافرةُ التقاطعاتِ ما بين أطلال الأبنية العتيقة ومبانٍ ينهض بعضُها على بعض مثلما تتراكم الحجارة على شاطئٍ صخريٍّ قوامُهُ النوافذُ والأبراج. وكنتُ

أعود إلى البيت عند المغيب محطَّمًا قبل أن يصحو والدي بقليل.

وفي اليوم السادس، حين كدتُ أوقن أنّ لقاءنا كان مجرّد حلم، دلفتُ إلى شارع لوس ميرايرس وأنا أنظر إلى الباب الجانبيّ لكاتدرائيّة سانتا ماريّا دل مار. خيّمت غمامةٌ ضبابيّةٌ كثيفةٌ على المدينة، وراحت تجرجر أذيالها في الطرقات كالستار باهت البياض. قناطر الكنيسة مفتوحة. وكان هناك إذ رأيتُ شخصين مظلَّلين على مدخل المعبد، امرأةٌ وطفلةٌ ترتديان ثيابًا بيضاء سرعان ما طوَّقهما الضباب بذراعه. ركضتُ نحوهما ودخلتُ إلى الكنيسة. كان تيّار الهواء يجذب الضباب إلى داخل المبنى، فتطفو عباءةٌ شبحيّةٌ من بخارٍ فوق صفّ مقاعد الرواق المركزيّ، المضاء بنور الشموع. عرفتُ أنتونيا، الخادمة، جاثمةً على ركبتيها في حُجرة الاعتراف، مثقلةً بتعابير التوبة والتضرُّع. لم يكن لديّ أدنى شكّ في أنّ اعتراف تلك الخطّافة مبنيٌّ على نبرة القطران وكثافته. كانت بلانكا تنتظر جالسةً على مقعدٍ حيث تتدلّى ساقاها، ونظراتها تتوه في المذبح. اقتربتُ إلى طرف المعقد فالتفتت. وحين رأتني أشرق وجهها وابتسمت، حتّى أنستني بلحظةٍ واحدةٍ كلَّ عذابات الأيّام الطويلة التي أمضيتُها في البحث عنها. جلستُ بجانبها.

- ما الذي تفعله هنا؟ - سألتْ.

- كنتُ آتيًا إلى القدّاس. - ارتجلتُ.

- هذا ليس وقت القدّاس. - ضحكت.

لم أكن أرغب في الكذب عليها، فأخفضتُ نظري. لا حاجة لأخبرها بأيّ شيء.

- اشتقتُ إليك أنا أيضًا. - قالت - ظننتُ أنّك نسيتني.

هززتُ رأسي نافيًا. سلّحتني أجواءُ الضباب والهمسات بالشجاعة فقرّرتُ أن أتوجّه إليها بإحدى تلك المصارحات التي كنتُ قد أعددتُها لواحدةٍ من قصصي القائمة على السحر والبطولة.

- لن أقدر على نسيانك أبدًا. - قلت.

لعلّ كلماتي بدت فارغةً ومضحكة، إلّا أنّها خرجت من فم صبيٍّ ذي ثمانية أعوام ربّما لا يعرف ما الذي يلفظه، لكنّه يشعر به. نظرت بلانكا في عينيّ بحزنٍ غريبٍ عن نظرات طفلة، وضمّت يدي بقوّة.

- عدني أنّك لن تنساني أبدًا.

كانت أنتونيا، المتحرّرة ظاهريًّا من الإثم والمستعدّة للوقوع فيه، تراقبنا بعين الضغينة من مدخل صفّ المقاعد.

- آنسة بلانكا؟

لم تُشِح بلانكا نظرها عنّي.

- عدني بذلك.

- أعدكِ.

ومرّةً أخرى، انتزعت الخادمةُ صديقتي الوحيدة واقتادتها بعيدًا. رأيتهما تبتعدان على امتداد الممرّ المركزيّ للكنيسة

وتختفيان عند الباب الخلفيّ المؤدّي إلى جادّة بورن. لكنّ هذه المرّة وَخَزَ الدهاءُ تعاستي. أخبرني حدسي بأنّ الخادمة امرأةٌ هشّة الضمير ولا بدّ أنّها تدأب على العودة إلى حُجرة الاعتراف لكي تكفِّر عن غياباتها. قرعت أجراسُ المعبدِ الرابعةَ، وبدأت بذرةُ خطّةٍ تنبت في ذهني.

منذ ذلك اليوم، صرت أتواجد في كنيسة سانتا ماريّا دل مار في الرابعة إلّا ربعًا من كلّ ظهيرة، وأجلس على أحد المقاعد المحاذية لحُجر الاعتراف. ولم يمرّ يومان إلّا ورأيتُها تظهر من جديد. انتظرتُ أن تجثو الخادمة عند الحُجرة واقتربتُ من بلانكا.

- كلّ يومين، عند الرابعة. - همست لي.

ودون أن أضيّع وقتًا، أمسكتُها من يدها وصحبتُها في جولة داخل الكنيسة. وكنتُ أعددتُ لها قصّةً تدور هناك تحديدًا، ما بين أعمدة المعبد وقببه، وفيها نزالٌ نهائيٌّ يحدث في السرداب تحت المذبح، بين روحٍ شرّيرة مكوّنةٍ من الرماد والدماء وبين فارسٍ مقدام. وكانت تلك ستكون الحلقة الأولى من سلسلةٍ من المغامرات والأهوال وقصص الغرام، سلسلةٍ عالية الدقّة ألّفتُها من أجل بلانكا بعنوان «أشباح الكاتدرائيّة»، وكانت السلسلة من منظور غروري الشاسع الذي يناسب كاتبًا غريرًا تبدو لي كالذهب الخالص أو أقلّ قليلًا. أتممتُ الفصل الأوّل بما تسنّى لي من وقتٍ للعودة إلى حُجرة الاعتراف حيث الخادمة، التي لم ترني يومذاك لأنّني اختبأتُ خلف عمود. تلاقينا بلانكا وأنا على

مدى أسبوعين هناك مرّةً كلّ يومين. وتقاسَمنا قصصًا وأحلامًا صبيانيّة بينما كانت الخادمة تعذّب الكاهن بالحصيلة المطوَّلة لخطاياها.

وفي نهاية الأسبوع الثاني، انتبه كاهن الاعتراف إلى وجودي، وكان قسًّا بملامح ملاكٍ متقاعد، وما لبث أن ربط الخيوط ببعضها. كنت على وشك الفرار حينما أشار لي بالدنوّ من الحُجرة. أقنعتني سماتُ الملاكم فيه فانصعتُ لأمره مباشرةً. ركعتُ هناك، وأنا أرتعد أمام البرهان على إحباط مكيدتي.

- السلام عليكِ يا مريم يا ممتلئة نعمة... - غمغمتُ باتّجاه الفتحة.

- هل تخالني راهبة أيّها الأحمق؟

- المغفرة يا أبانا. لا أعرف ماذا يقال.

- ألم يعلِّموك ماذا يقال في المدرسة؟

- المعلّم ملحد ويقول إنّكم معشر الخوارنة أداةٌ بيد رأس المال.

- وهو أداةٌ بيد مَن؟

- لم يفصح عن ذلك. أعتقد أنّه يحسَب نفسه عميلًا حرًّا.

ضحك الكاهن.

- أين تعلَّمتَ الكلام بهذه الطريقة؟ في المدرسة؟

- عبْر القراءة.

- قراءة ماذا؟

- ما يسعني قراءته.

- هل قرأتَ كلمة الربّ؟

- هل الربّ يكتب؟

- ستبقى ماكرًا إلى أن ينتهي بك المطاف في الجحيم.

مضغتُ ريقًا.

- هل ينبغي لي أن أروي لك خطاياي الآن؟ - غمغمتُ بحزن.

- لا حاجة إلى ذلك. خطاياك مطبوعةٌ على جبينك. ما قصّتك مع تلك الخادمة وتلك الطفلة كلَّ يومٍ تقريبًا؟

- أيُّ قصّة؟

- أذكِّرك أنّ هذه حُجرة اعتراف، وإن كذبتَ على كاهن، فقد يحيلك الربّ إلى رماد بصاعقةٍ فاتكة حالما تخرج من هنا.

- هدّد الراهبُ.

- أهذا أكيد؟

- لن أجازف لو كنتُ محلّك. هيّا، تكلَّمْ.

- من أين أبدأ؟ - سألتُ.

- تجاهَلِ اللمسات والكلمات النابية وقل لي ما الذي تفعله كلّ يومٍ تقريبًا عند الرابعة في كنيستي.

للركوع والعتمة ورائحة الشمع ما يدعوك إلى تفريغ الضمير. اعترفتُ حتّى بالعطسة الأولى. وكان الخوريّ يصغي

صامتًا، ويكحُّ كلّما توقّفتُ. وعند نهاية مصارحتي، حين تصوّرتُ أنّه سيرسلني إلى الجحيم فورًا، سمعتُه يضحك.

- ألن تستتيبني؟

- ما اسمك يا فتى؟

- داڤيد مارتين يا سيّد.

- قل أبانا، لا سيّد. السيّد هو والدك، أو الربّ العليّ، أمّا أنا فلستُ بوالدك، إنّما أبٌ، وفي هذه الحالة الأب سيباستيان.

- المغفرة يا أبانا سيباستيان.

- «أبانا» تكفي وتزيد. وصاحب المغفرة هو الربّ. أنا أتكفّل بالإدارة لا غير. والآن، إلى أين وصلنا؟ سأتركك اليوم تذهب في حال سبيلك مقابل إنذارٍ وصلاتين لمريم. وبما أنّني أعتقد أنّ الربّ في حكمته الواسعة قد اختار لك هذا الدرب غير المعهود لتقريبك من الكنيسة، فإنّني أعرض عليك اتّفاقًا. ستأتي إلى هنا مرّةً كلَّ يومين، قبل نصف ساعةٍ من لقائك بعشيقتك، لتساعدني في تنظيف غرفة المقدّسات. وفي المقابل سأستبقي الخادمة نصف ساعة على الأقلّ لكي تأخذ وقتك.

- هل ستفعل ذلك من أجلي يا أبانا؟

- *أغفر لك باسم الآب والابن والروح القدس*. اخرج من هنا الآن.

3

أثبت الأب سيباستيان أنّه صاحب كلمة. كنتُ أصل قبل نصف ساعة وأساعده في غرفة المقدّسات، لأنّ المسكين كان شبه أعرج، ويكاد لا يستطيع فعل ذلك بمفرده. كان يعجبه الإصغاء إلى قصصي، التي يعتبرها بمثابة تجديفٍ بسيط قابلٍ للغفران. لكنّه كان يستمتع بها، لا سيّما تلك التي تتحدّث عن أشباحٍ وتعويذات. بدا لي أنّه رجلٌ وحدانيٌّ مثلي، وافق على مساعدتي عندما اعترفتُ له بأنّ بلانكا هي صديقتي الوحيدة. كنتُ أعيش بفضل تلك اللقاءات.

ولطالما كانت بلانكا منيرة الوجه ومبتهجة، ترتدي ثيابًا عاجيّة اللون. وتنتعل حذاءً جديدًا، وتتزيّن بالقلائد الفضيّة. كانت تصغي إلى القصص التي أبدعها من أجلها وتحدّثني عن عالمها وعن بيتها الكبير والمعتم الذي انتقل والدها للسكن فيه ليس بعيدًا عن هناك، في مكانٍ يخيفها وتكرهه. حدّثتني عن أمّها أحيانًا، أليثيا، التي تعيش معها في بيت العائلة القديم في ساريا. وأحيانًا أخرى، كانت والدمعُ يكاد ينهمر من عينيها، تحيل على أبيها الذي تودّه، غير أنّه مريضٌ بحسب قولها ولا يخرج من البيت إلّا نادرًا.

- أبي كاتب. - كانت تروي - مثلك. لكنّه لم يعد يكتب القصص من أجلي كما في السابق. والآن بات لا يكتب إلّا حكاياتٍ لرجلٍ يأتي إلى البيت لزيارته خلال الليل في بعض

الأحيان. لم أره يومًا، لكنّي ذات مرّة بقيتُ للمبيت هناك، وسمعتُهما يتحادثان حتّى ساعة متأخّرة، على انفراد في مكتب والدي. ذلك الرجل ليس ودودًا. إنّه يخيفني.

وكنتُ في كلّ مساء، حين أنصرف عنها، أعود إلى البيت وأنا أحلم بعينين يقظتين باللحظة التي سأنقذها فيها من وجودها القائم على الغياب، ومن ذلك الزائر الليليّ الذي يفزعها، ومن حياة الرغد التي تسرق منها النورَ في كلّ يومٍ يمضي. كنتُ في كلّ مساء أقول لنفسي إنّني لن أنساها ما حييتُ وإنّني بمجرّد تذكُّرها كنتُ سأستطيع إنقاذها.

وفي يومٍ من نوفمبر، ذي سماءٍ صافية وصقيعٍ يغطّي زجاج النوافذ، خرجتُ لملاقاتها كالعادة، لكنّ بلانكا لم تأتِ على موعدنا. وبقيتُ مدّة أسبوعين أنتظر في الكنيسة أن تسجّل صديقتي حضورها ولكنْ بلا جدوى. بحثتُ عنها في كلّ مكان، وحين دخل عليّ أبي فجأة ورآني أبكي في الليل كذبتُ عليه وقلت له إنّ أسناني تؤلمني، مع أنّ كلَّ الأسنان لا يمكن أن تسبّب ألمًا أقسى من ذلك الغياب. انشغل بال الأب سيباستيان عندما رآني أنتظرها هناك كلّ يوم كأنّني روحٌ معذَّبة، جلس ذات يوم بجانبي وحاول أن يُسلي عنّي.

- ربّما من الأجدى لك أن تنسى صديقتك يا داڤيد.

- لا أستطيع. لقد وعدتُها ألّا أنساها أبدًا.

مرّ شهرٌ على اختفائها حين أدركتُ أنّني بدأتُ أنساها. كففتُ عن الذهاب إلى الكنيسة مرّةً كلّ يومين، وعن ابتكار

القصص من أجلها. وأخذتُ أنسى رنين صوتها، وشذى عطرها ونور وجهها. وعندما فهمتُ أنّني كنتُ أفقدها، ذهبتُ إلى الأب سيباستيان أتوسّل إليه أن يغفر لي، وأن ينتزع منّي ذلك الألم الذي ينهشني من الداخل وأن يقول في وجهي إنّني نكثتُ عهدي وإنّني عاجزٌ عن تذكُّر صديقتي الوحيدة التي جادت عليَّ بها الحياة.

رأيتُ بلانكا للمرّة الأخيرة في مطلع شهر ديسمبر. كنتُ قد نزلتُ إلى الطريق أتأمّل المطر من البوّابة عندما لمحتُها. كانت تسير وحيدةً تحت المطر، وكان حذاؤها المطليُّ بالأبيض وفستانُها العاجيُّ ملطَّخين بمياه البِرَك. هُرِعتُ نحوها ورأيتُ أنّها تبكي. سألتُها ما الذي جرى فعانقتني. قالت لي إنّ أباها كان مريضًا للغاية وإنّها هربت من البيت. قلتُ لها ألّا تخشى شيئًا، وإنّنا سنهرب معًا، وإنّني سأسرق النقود لشراء تذكرتين للقطار - إذا اقتضت الضرورة - وإنّنا سنهرب من هذه المدينة إلى الأبد. ابتسمت لي بلانكا وعانقتني. وبقينا هكذا، في عناقٍ صامتٍ تحت سقالات ورشة الأورفيون، حتّى شقّت عربةٌ سوداء طريقَها بين ضباب العاصفة وتوقّفت أمامنا. نزل منها طيفٌ قاتم. أنتونيا، الخادمة. انتزعت بلانكا من بين ذراعيَّ وأركبتها بالعربة. صرخت بلانكا، وحينما حاولتُ انتشالَ ذراعها التفتت الخادمة وصفعتني بكلّ ما أوتيت من قوّة. سقطتُ على ظهري على الطريق المبلَّط، مشدوهًا من شدّة الصفعة. ولم أكد أنهض حتّى ابتعدت العربةُ كثيرًا.

لحقتُ بها تحت المطر إلى ورشة افتتاح شارع لايتانا. كان الطريق الجديد واديًا طويلًا من الخنادق الممتلئة بالماء تمضي لتدمير أدغال الأزقّة وبيوت حيّ ريبيرا على وقْع عبوات الديناميت ورافعات الإزالة. ملصت العربة من الحُفر والبِرَك، وتقدّمت مسافةً كبيرة. وفي عزمي على تعقُّب أثرها تسلّقتُ كومةً من البِلاط والتراب المحاذية لخندقٍ فاضت به الأمطار. أحسستُ فجأةً أنّ الأرض تتداعى تحت قدميّ وانزلقتُ. تدحرجتُ في الخندق حتّى هويتُ على وجهي في أسفل بئر الماء التي تشكّلت فيه. تمكّنتُ من لمس القاع بقدمي وإخراج رأسي من ذلك السائل الذي يصل حدَّ خصري. وأدركتُ حينها أنّ تلك المياه مسمومةٌ ومسكونةٌ بعناكب سود تعوم وتسير على سطحها. انقضّت الحشرات عليّ وغطّت يديَّ وذراعيَّ. صرختُ وخبَّطتُ أطرافي العليا، وتسلّقتُ جوانب الخندق الطينيّة وقد استبدّ بي الفزع. وعندما تمكّنتُ من الخروج من تلك الفوّهة الفائضة كان قد فات الأوان. ضاع أثر العربة في الجزء الأعلى من المدينة، وكان طيفها يتبدّد في عباءة المطر. جرجرتُ نفسي إلى البيت مبلّلًا حتّى النخاع، فوجدتُ والدي ما يزال نائمًا في غرفته المغلقة. نزعتُ ثيابي واستلقيتُ على السرير أرتجف من البرد والغلّ. رأيتُ أنّ جلد يديَّ وذراعيَّ مكسوٌّ بنقاط حمراء نازفة. لسعات. لم تهدر عناكب الخندق وقتها. شعرتُ بالسمّ يحرق دمي وفقدتُ الوعي وسقطتُ في هاويةٍ من ظلمات ما بين اليقظة والنعاس.

حلمتُ أنّني أجوب طرقات الحيّ المقفرة بحثًا عن بلانكا تحت العاصفة. المطر الأسود يرجم واجهات المباني، ووميض البرق يتيح رؤية أطيافٍ في البعيد. عربةٌ كبيرةٌ سوداء تمضي في عمق الضباب. بلانكا في داخلها تصيح وتضرب الزجاج بقبضتيها. لحقتُ صرخاتِها حتّى وصلتُ إلى طريقٍ ضيّقٍ ومظلم، حيث تبدّت لي العربة متوقِّفةً عند منزل ضخم وغارقٍ في العتمة يتلوّى في برجٍ حصينٍ يطعن السماء. كانت بلانكا تنزل من العربة وتنظر إليّ، وتمدّ يديها نحوي بما يشبه الرجاء. أردتُ أن أركض باتّجاهها، لكنّ خطواتي لم تسمح لي بالتقدّم أكثر من بضعة أمتار بعناءٍ مهول. وفي تلك اللحظة برز ظلٌّ هائلٌ عند باب المنزل، ملاكٌ كبيرٌ وجهُهُ من مرمر، ينظر إليّ ويبتسم كالذئب، ويبسط جناحيه السوداوين فوق بلانكا ويغمرها بعناقه. كنت أصرخ لكنّ صمتًا ثقيلًا أطبَقَ على المدينة. وظلَّ المطرُ معلّقًا في الهواء خلال لحظةٍ لا تنتهي، مثل مليون دمعةٍ زجاجيّةٍ تحوم في الفراغ، فرأيتُ الملاك يقبّل جبينها، وشفتاه تدمغان بشَرَتَها كأنّهما من حديدٍ ذائب. لامستْ قطراتُ المطرِ الأرضَ، واختفى كلاهما إلى الأبد.

بلا اسم

برشلونة ١٩٠٥

بعد أعوام، قالوا لي إنّهم رأوها للمرّة الأخيرة وهي تدخل ذلك الطريق الكئيب الذي يفضي إلى أبواب مقبرة الشرق. كان الظلام قد خيَّم على الأجواء التي اكتسحتها رياحٌ زمهرير تهبّ من الشمال وتجرُّ خلفها ستارةً من سُحُبٍ حمراء تخيّم على المدينة. وكانت تمشي بمفردها، ترتجف بردًا وتخلِّف وراءها أثرًا لخطواتٍ حائرة على بساط الثلج الذي بدأ بالتساقط في منتصف الظهيرة. وحين وصلت إلى أعتاب المقبرة، توقّفت الفتاة لحظةً لتلتقط أنفاسها. غابةٌ من ملائكةٍ وصلبانٍ تتوارى خلف الأسوار. لفحت رائحةُ الأزهار الميّتة والجير والكبريت وجهَها وأغرتها بالدخول. وكانت تهمّ للتقدّم في المسير عندما شقّت غصّةُ الألم طريقًا في أحشائها كأنّها من حديدٍ ذائب. وضعت يديها على بطنها واستنشقت عميقًا لتقاوم الغثيان. مرّت لحظةٌ لا نهاية لها من احتضارٍ وخشيةٍ من العجز عن القيام بخطوةٍ أخرى، والسقوط أرضًا قبالة بوّابة المقبرة، ليجدوها

هناك عند الفجر تعانق الحدائد كتمثالٍ من صفراء الكبد وشراسة الصقيع، وابنها الذي تحمله في رحمها عالقًا داخل ناووسٍ من الجليد ميؤوسَ الخلاص.

كان من السهل أن ترمي نفسها هناك، على الثلج، وأن تغمض عينيها إلى الأبد. لكنّها كانت تشعر بنسمة الحياة المستقرّة في أعماقها، النسمة التي لا تريد أن تنطفئ، وتبعث فيها همّة النهوض، فأدركت أنّها لن تستسلم للألم أو البرد. استجمعت قواها الخائرة وقامت من جديد. انعقدت أربطة الوجع في بطنها، لكنّها تجاهلتها وسارعت الخطى. لم تتوقّف إلّا عندما تركت متاهة الأضرحة والصروح العفنة وراء ظهرها. رفعت بصرها حينذاك، وأحسّت بهبوب الأمل حينما تراءى لها ما بين ظلمات الغسقِ بابٌ من الحديد المطروق يؤدّي إلى مصنع الكتب القديم.

يمتدّ ما وراءه حيُّ بويبلو نويبو صوبَ أفقٍ من رمادٍ وظلال. كانت مدينة المصانع تمثِّل انعكاسًا قاتمًا لبرشلونة المسحورة بمئات المداخن التي تنزف أنفاسَها السوداء على قرمزيّة السماء. وكلّما ولجت الفتاةُ في عقدة الدروب المسجونة بين المستودعات والمخازن الجوفيّة، تذكَّرت عيناها بعضًا من الهياكل الكبرى التي تحدّد الحيَّ، من مصنع خان سالادريغاس إلى برج المياه. وكان مصنع الكتب القديم متميّزًا عنها جميعًا. فمن واجهته المهيبة تنتأ أبراجٌ وجسورٌ معلَّقةٌ توحي بمخيّلة معماريٍّ شيطانيٍّ اكتشف طريقةً للاستهزاء بقوانين الرسم

المنظوريّ. قببٌ ومآذنُ ومداخنُ تتخايل في بابلٍ من طيقانٍ وأروقةٍ مسنودةٍ بعشرات الأعمدة والأقواس الداعمة. منحوتاتٌ ونوافرُ تتلوّى على امتداد أسواره، وأجرانٌ زجاجيةٌ مخرومةٌ تمرّر ضوءًا شبحيًّا مُذَرًّى.

تمعّنت الفتاة في ترسانة الغراغيل التي تتوّج الأفاريز وتتقيّح خطوطًا من بخارٍ تسفح مريرَ عطر الورق والحبر. وحين شعرت أنّ الألم يعتصر أحشاءها مجدّدًا، سارعت نحو الباب الرئيس وشدَّت المقرعة. سمعت أصداء خامدة لجرسٍ خلف بوّابة الحديد المطروق. نظرت الفتاة خلفها ولاحظت أنّ آثار خطواتها سرعان ما أخفاها الثلجُ من جديد. ريحٌ جليديّةٌ وحادّةٌ تدفعها على البوّابة. شدَّت المقرعة بقوّةٍ مرّة أخرى، ومرّتين وثلاث، ولمَّا يردْها جواب. بدا أنّ الضوء الخافت الذي كان حولها يتبدّد تدريجيًّا، بينما تتمدّد الظلال على قدميها بسرعة. كانت تعي أنّ الوقت لا يمرّ لمصلحتها، فابتعدت عن البوّابة بضع خطوات، وتقصَّت عبْر نوافذ الواجهة الرئيسة. ثمّة طيفٌ يتبدّى في نافذة زجاجيّة مموّهة، متحجّرًا كالعنكبوت الرابض وسط شبكته. لم تتمكّن الفتاة من رؤية وجهه أو تحديد ما هو أكثر من حنايا جسدٍ نسائيّ، لكنّها فهمت أنّها تحت المراقبة. لوَّحت بذراعيها ورفعت صوتها تطلب النجدة. وما زال الطيف متحجّرًا إلى أن انطفأ الضوء الذي يحدّده فجأةً. تغمَّد الظلامُ النافذةَ كلّيًّا، لكنّ الفتاة استشعرت أنّ العينين اللتين تراقبانها بتركيزٍ ما تزالان هناك وسط الظلّ، ثابتتين، تلمعان في الغسق.

هي المرّة الأولى التي ينسيها الخوفُ البردَ والألم. شدّت المقرعة للمرّة الثالثة، وحينما أدركت أنّها لن تحصل على جواب راحت تضرب الباب بقبضتيها وتصيح. وظلّت على تلك الحال حتّى أدمت يديها، تستجدي المساعدة إلى أن بُحَّ صوتُها وما عادت ساقاها قادرتين على حملها. هوت على بركة متجمّدة، أغمضت عينيها وأصغت إلى نبض الحياة في بطنها. ثمّ راح الثلج يغطّي وجهها وجسمها.

كان الليل قد تفشّى كالحبر المسكوب عندما انفتح الباب مسلِّطًا هالة النور على جسدها. طيفان يحمل كلٌّ منهما مصباحًا غازيًّا، جلسا القرفصاء بجانبها. أحد الرجلين، مكتنز البنية ومجدور الوجه، أزاح شعر الفتاة عن جبينها. فتحت عينيها وابتسمت له. تبادل الرجلان نظرة، فأشار الثاني الأصغر سنًّا وحجمًا إلى شيءٍ مّا يتلألأ في يد الفتاة. خاتم. همَّ الشابّ لانتزاعه، فأثناه رفيقه.

أنهضاها. حملها الأكبر والأقوى من بينهما على ذراعيه وأمر الآخرَ أن يركض بحثًا عن النجدة. أومأ الفتى على مضض وابتلعه الظلام. كانت الفتاة تركّز نظراتها في عيني الرجل الجسيم الذي يحملها بين ذراعيه، وتغمغم كلمةً لا تقوى على تكوينها على شفتيها اللتين مزّقهما البرد. *شكرًا*، *شكرًا*.

كان الرجل يمشي بعرجٍ طفيف، ذهب بها إلى ما يشبه المرأب المجاور لمدخل المصنع. استطاعت الفتاة في الداخل أن تسمع أصواتًا أخرى، واستشعرت أذرعًا متعدّدة تسندها

وتمدّدها على طاولةٍ خشبيّة قرب موقد نار. أذاب دفءُ الوهج دموعَ الجليد التي ترصّع شعرها ووجهها شيئًا فشيئًا. هناك فتاتان، في ريعان الشباب مثلها، ترتديان زيّ الخدم، دثّرتاها بغطاء وراحتا تدلّكان ذراعيها وساقيها. أيادٍ تتضوّع بروائح البهار، أوصلتْ إلى شفتيها كأسًا من النبيذ الساخن. فتغلغل السائلُ الفاتر في أحشائها كالبلسم.

بدأت الفتاة تجيل نظرها لتفحُّص الغرفة وهي مستلقية على الطاولة، ففهمت أنّها موجودةٌ في مطبخ. عدّلت إحدى الخادمتين رأسها فوق عدّة مناشف، فجعلت جبينَها يميل إلى الخلف. وصارت بتلك الوضعيّة ترى الغرفة مقلوبةً. القدور والمقالي والأوعية معلّقةٌ بما يخالف الجاذبيّة. وهكذا رأتها تدخل. كانت تلك المرأة بوجهها الناصع والرائق ولباسها الأبيض، تدخل من الباب وتقترب ببطءٍ كأنّها تمشي على السقف. أفسحت لها الخادمتان المجال، وانصرف الرجل الضخم بسرعة مطأطئ الرأس بما ينمّ عن تهيُّبه. سمعت الفتاة خطواتٍ وأصواتًا تبتعد عنها ففهمت أنّها غدت على انفراد بالمرأة ذات اللباس الأبيض. رأتها تنحني عليها فأحسّت بأنفاسها، دافئةً وعذبة.

- لا تخافي. - غمغمت السيّدة.

فحصتها عيناها الرماديّتان بصمت، وكان ظاهر يدها من أرقّ جلدٍ يلامس خدّها. فكّرت الفتاة أنّ السيّدة كالملاك المتعب بحضورها وسلوكها، ملاك سقط من السماء إلى مهوى

النسيان. بحثت عن ملاذٍ في نظراتها. ابتسمت لها السيّدة ولامست وجهها بعذوبةٍ لا حدود لها. وبقيتا على تلك الحال نصف ساعة، في صمتٍ مهيب، إلى أن سُمِعت همهمةٌ في الفِناء وعادت الخادمتان صحبة الرجل الشابّ، وسيّدٍ يرتدي معطفًا سميكًا ويحمل حقيبة سوداء كبيرة. تموضع الطبيب بجانبها وجسَّ نبضها. كان يعاينها بنظرةٍ عصابيّة. مسَّ بطنها وتنهّد. لم تفهم الفتاة ما كان الطبيب يمليه على الخادمات والخدم الذين تجمّعوا حول النار. وهكذا استنهضت قوّتَها لتستعيد صوتها وتسأل ما إذا كان ابنها سيولد سالمًا. وعلى الرغم من أنّ تعابير الطبيب توحي بأنّه يضع كليهما في عِداد الموتى، اقتصر على تبادل النظرات مع السيّدة ذات اللباس الأبيض.

- داڤيد. - غمغمت الفتاة. - سيكون اسمه داڤيد.

أومأت السيّدة وقبّلت جبينها.

- عليكِ أن تكوني قويّة الآن. - همست المرأة وهي تمسك يدها بعزم.

عرفتُ بعد أعوام أنّ تلك الفتاة التي لم تتخطَّ عامها السابع عشر رقدت في صمتٍ مطبق، من دون أن تُصدِرَ أنينًا، بعينين مفتوحتين، ودموعٍ تسيل على خدّيها، بينما كان الطبيب يفتح بطنها بالمبضع ويحمل إلى العالم طفلًا ما كان ليذكرها إلّا عبْر كلام بعض الغرباء. تساءلتُ مرارًا ما إذا استطاعت أن ترى السيّدةَ ذات اللباس الأبيض وهي تولي إليها ظهرها لتأخذ المولود بين ذراعيها وتضمّه إلى صدرها المتّشح بالحرير الأبيض

بينما كانت الأمُّ ترفع يديها وتتوسّل أن يسمحوا لها برؤية ابنها. تساءلتُ غالبًا ما إذا استطاعت تلك الفتاة أن تسمع بكاء ولدها، وهو يبتعد بين ذراعي امرأةٍ أخرى، عندما تركوها وحيدةً في تلك الغرفة حيث ظلّت ممدّدةً في بئرٍ من دمائها إلى أن عادوا ليكفّنوا جسدها الذي ما زال يرتجف. تساءلتُ ما إذا أحسّت على إحدى الخادمات وهي تنشل الخاتم من يدها اليسرى لتمزِّق جلدها حين جرّوا جسدها في الليل من جديد، لتُرمى في العربة من قِبَلِ الرجلين اللذين ساعداها. تساءلتُ مرّاتٍ كثيرةً ما إذا كانت ما تزال تتنفّس عندما توقّفت الأحصنة وأمسك الرجلان بالكفن لإلقائه في القناة التي تدفع نفايةَ مئات المصانع نحو جرود الأكواخ الخشبيّة والكرتونيّة التي تغطّي شاطئ بوغاتيل.

صمّمتُ على الإيمان بأنّها في تلك اللحظة الأخيرة - حين بصقتها المياه الآسنة في البحر وتفكّك الكفن في التيّار ليسلِّم جسدها إلى ظلماتٍ بلا قاع - أدركتْ أنّ الطفل الذي أنجبته كان سيعيش ويتذكّرها إلى الأبد.

لم أعرف اسمها أبدًا.

تلك الفتاة هي أمّي.



فتاةٌ من برشلونة

كانت لايا في ربيعها الخامس عندما باعها أبوها للمرّة الأولى. حدث ذلك بناءً على اتّفاقٍ بريءٍ ومثيرٍ للشفقة، لا صلة له بالشرور ما عدا تلك المستلهمة من بؤس الجوع وضغط الديون. إدواردو سنتس، مصوّرٌ ورسّامُ بورتريه بلا حظوظٍ ولا أمجاد، ورث استديو مَن كان مرشده وربَّ عمله على امتداد عشرين عامًا. بدأ العمل هناك بصفة متمرّن، ثمّ أصبح معاونًا، وفي النهاية حصل على الوظيفة، من دون الراتب، ليغدو مصوِّرًا ومساعدًا في الإدارة. يقع الاستديو في محلٍّ رحبٍ من طابقٍ أرضيّ في إحدى بنايات شارع كونسويخو دي ثيينتو، وفيه أربع صالات تصوير وغرفتان للتحميض ومخزنٌ مليء بالمعدّات قديمة الطراز ورديئة الحال. وقد ورث إدواردو، إضافةً إلى المشروع، كثيرًا من الفواتير غير المسدّدة، خلّفها ربُّ عمله الذي كانت خبرته في العدسات والألواح الفوتوغرافيّة تفوق قدرته على تصفية الحسابات. وحين رحل لم يكن إدواردو سنتس قد تقاضى راتبه منذ ما يزيد على ستّة أشهر. وبحسب

الموكَّل على الوصيّة، فإنّ انتقال ملكيّة المحلّ بعد الوفاة وما يتعلّق به من إرثٍ بائسٍ يوحي بمكافأةٍ مستحقّة لإخلاصه وتفانيه الشديدين. وما إن سُلِّط الضوءُ والغراماتُ على دفتر الحسابات، أيقن إدواردو سنتس أنّ ربّ عمله الذي أفنى شبابه في خدمته لم يترك له ورثةً إنّما لعنةٌ صغيرة. تعيَّن عليه أن يسرِّح كلّ الموظّفين وأن يواجه تحدّيات إنقاذ الاستديو، وإنقاذ نفسه أيضًا، بمفرده. ومنذ تلك اللحظة، تركّزَت معظم المهام الناتجة عن الاستديو على تقويماتٍ فلكيّة عائليّة من كلّ نوع، من الزفاف والتعميد إلى الجنائز والمناولة الأولى. إلّا أنّ موضوعة الجنازة كانت من اختصاصه، إذ اعتاد إدواردو سنتس إضاءة الموتى وتصوير وجوههم على نحوٍ أفضل من وجوه الأحياء، ذلك أنّهم لا يفقدون تركيزهم أثناء عمليّات التصوير الطويلة لأنّهم لا يتحرّكون أساسًا وليسوا مضطّرين إلى حبس أنفاسهم.

وبفضل ذيوع صيته كمصوِّر الدياجير أوكِلَ بمَهمّةٍ بدت في البداية بسيطةً ولا تنضوي على تعقيداتٍ كبرى. مرغريتا بونس، طفلةٌ ذات خمسة أعوام، وابنةٌ لعائلةٍ ثريّةٍ تسكن في أحد قصور شارع تيبيدابو وتمتلك منشأةً صناعيّة على ضفاف نهر التير. توفّيت ضحيّةً لحمّى غريبةٍ من نوعها في اليوم الأوّل من عام ١٩٠١. فأصيبت أمّها، السيّدة إيولاليا، بأزمةٍ عصبيّةٍ سارع أطبّاءُ العائلة إلى تسكينها بجرعاتٍ زائدة من أفيون اللودانيوم. ولم يكن لدى الدون فيديريكو، ربّ الأسرة والرجل المحترم، مجالٌ أو وقتٌ لذلك الإفراط العاطفيّ، فقد شهد على وفاة أكثر

من ابن ولم يذرف دمعة ولا آهة. ناهيك بأنّه يعوِّل أساسًا على وريثٍ نجلٍ ذكر، يتمتّع بالعافية وحسن المظهر. لذا فإنّ فقدانه ابنةً، على الرغم من تعاسة الموقف، يبشِّر عمليًّا بتوفيرٍ للإرث العائليّ طويل الأمد ومتوسّط الأمد أيضًا. وكان ينوي إقامة الجنّاز وتسريع مراسم الدفن في قبر العائلة داخل مقبرة مونتويك، وذلك بهدف العودة إلى وتيرة الحياة اليوميّة بأقرب وقت. إلّا أنّ السيّدة إيولاليا، الهشّة والميّالة إلى تصديق خُدَع السيّدات الدجّالات في النادي الروحيّ «النور. شارع إليزابيث»، لم تكن في وارد أن تقلب الصفحة بتلك الطريقة الحاسمة. ولإسكات نحيبها، وافق الدون فيديريكو على التقاط سلسلةٍ من الصور للمرحومة بناءً على رغبة أمّها، قبل أن يغلق مشرفو الجنائز على الجثّة في تابوتٍ عاجيٍّ مرصَّعٍ بالكريستال اللازورديّ إلى الأبد.

استدعي إدواردو سنتس، مصوّر وجوه الموتى، إلى القصر في شارع تيبيدابو حيث يقيم آل بونس. كان المبنى متواريًا خلف حرشٍ كثيف، يمكن العبور إليه عبْر بوّابةٍ عند تقاطع الشارع بشارع خوسيه غاري. وكان النهار رماديًّا وعبوسًا، مشتقًّا من ذلك الشتاء القاسي والمسجور بالضباب الذي ولَّدَ الشؤم في روح سنتس البائس. أخذ ابنته لايا معه نظرًا لكونه لا يعرف أحدًا يؤمِّنه عليها. ركب سنتس الترام الأزرق، يمسك الطفلةَ بيد، ويحمل حقيبة العدسات ومنفاخ الكاميرا باليد الأخرى، وقدَّم نفسه في قصر بونس على نيّة ابتداء السنة الجديدة بمبلغٍ

ماليٍّ عدًّا ونقدًا. استقبله أحد الخدم واقتاده باتّجاه حديقة المبنى، ومن هناك اقتيد إلى صالة انتظار صغيرة. كانت لايا تنظر إلى كلّ شيء بعينين مفتونتين، لأنّها لم تر مثل ذلك المكان من قبل، بدا لها خارجًا من إحدى الحكايات، تلك التي تتحدّث عن رابَّاتٍ شرّيرات ومرايا مسمومة بذكرياتٍ قبيحة. ثريّاتٌ زجاجيّة تتدلّى من السقف، تماثيلُ ولوحاتٌ تزيّن الجدران، وسجّادٌ عجميٌّ سميك يغطّي البِلاط. وعندما حدّق سنتس إلى تلك الثروة الطافحة، راودته فكرةُ أن يرفع أجرته. استقبله الدون فيديريكو الذي نظر إلى عينيه بالكاد، وحدّثه بنبرةٍ يخصّ بها الخدم وعمّال المصنع. لديه ساعة واحدة لالتقاط مجموعة من الصور لوجه الطفلة الفقيدة. وحين رأى لايا، قطّب الدون فيديريكو جبينه مستاءً. هي عقيدةٌ مشتركةٌ بين كلّ الذكور في أسرته، تقوم على اعتبار أنْ لا جدوى من الأنثى إلّا في السرير، إلى الطاولة أو في المطبخ. أمّا تلك المشاكسة فلم تكن سنُّها أو مكانتُها تسمحان بتصنيفها في أيٍّ من تلك الحالات الثلاث. برّر سنتس وجود ابنته بأنّ المهمّة كانت مستعجلة بحيث لم يتسنّ له العثور على مَن يرعاها. اكتفى الدون فيديريكو بالتأفّف وأشار للمصوّر باللحاق به عبر السلالم.

أُعِدَّ جثمانُ الطفلة في إحدى غرف الطابق الأوّل. كانت راقدةً على سرير واسعٍ ومشبعٍ بالزنابق البيضاء، يداها مضمومتان على صدرها يتوسّطهما صليب، وجبينها متوَّجٌ بإكليلٍ من الورود، وجسمها متّشحٌ بثوبٍ من الحرير الرقيق. هناك

خادمتان تحرسان الباب بصمت، وحزمةٌ من ضوءٍ رماديٍّ تقع من النافذة على وجه الطفلة. اكتسبت بشرتها لون الرخام ومظهره. ثمّة عروقٌ زرقاء وسوداء تجوب أنحاء جلدها الذي كاد يغدو شفيفًا. عيناها غائرتان في محجريهما، وشفتاها صارتا من لون الأرجوان. كما أنّ الغرفة تفوح برائحة الأزهار الميّتة.

أشار سنتس لابنته بأن تنتظر في الممرّ، وبدأ يركِّب ركائز آلة التصوير قبالة السرير. قدَّرَ أنّه سيصنع ستّة ألواحٍ فوتوغرافيّة بالمجمل. مستويان أوّليان بإحدى العدسات الطويلة. مستويان وسطيّان من الخصر إلى أعلى، ومستويان طوليّان للشكل بأكمله. وكلُّها من الزاوية نفسها، لأنّه كان يخشى أنّ اللقطة الجانبيّة أو زاوية الأرباع الثلاثة قد تُظهِر شبكة العروق والشعيرات الداكنة التي تبرز من تحت جلد الصغيرة، ما قد ينتج صورًا أشدّ مقتًا ممّا يتطلّبه الوضع. ولا بدّ للإضاءة الزائدة أن تجعل الجلد أنصع ممّا هو عليه وأن تلطِّف صورة الجسد بهالةٍ أكثر دفئًا وتدرُّجًا وأن تضيف غبشًا بُعديًا على التفاصيل المحيطة. وبينما كان يجهّز العدسات، أحسَّ أنّ شيئًا يتحرّك في أقصى الغرفة. تلك التي رآها وهو داخلٌ وظنّها أحدَ التماثيل الكثيرة ما كانت في الحقيقة سوى امرأةٍ بثوب الحِداد وتسدل حجابًا على وجهها. هي السيّدة إيولاليا، أمّ الطفلة، تجهش باكيةً في صمت وتطوف أرجاء الغرفة كما لو أنّها روحٌ معذّبة. اقتربت من الطفلة ولامست وجهها.

- ملاكي يخاطبني - قالت لسنتس - ألا تسمعه حضرتك؟

أومأ سنتس وتابع تحضيراته. من الأفضل أن يسرع في مغادرة ذلك المكان. استعدّ لالتقاط الصور الأولى، فطلب المصوّر من الوالدة أن تتنحّى قليلًا عن مجال الكاميرا. قبّلت جبين الجثمان ووقفت خلف المصوّر.

كان سنتس مركّزًا في عمله بحيث لم يفطن أنّ لايا دخلت إلى الغرفة وباتت واقفةً بجانبه، تنظر مصعوقةً إلى الطفلة الميّتة والملقاة على السرير. وقبل أن تتصرّف بشيء، دنت منها السيّدة إيولاليا وجلست القرفصاء بجوارها. «مرحبًا يا عزيزتي. هل أنتِ ملاكي؟» سألتها. أمسكت السيّدة بذراع ابنة سنتس وضمّتها إلى صدرها. شعر سنتس بدمائه تتجمّد. كانت أمّ الفقيدة تغنّي تهويدةً لابنته لايا وتهدهدها بين ذراعيها، وتخبرها أنّها ملاكها وأنّهما لن يتفارقا أبدًا بعد اليوم. وفي تلك اللحظة ظهر الدون فيديريكو، انتزع الطفلة من بين يدي زوجته التي أخرجها من الغرفة. كانت السيّدة إيولاليا تبكي وتتوسّل أن يتركها بجانب ملاكها، وما زالت تمدّ ساعديها نحو لايا. التقط المصوّر الألواحَ بأقصى ما استطاع من تعجُّلٍ وجمع عدَّته. وعندما خرج، كان الدون فيديريكو ينتظره عند المدخل، حاملًا أجر خدماته في مظروف. لاحظ سنتس أنّ المظروف يحتوي على ضِعف المبلغ المتّفق عليه. وكان الدون فيديريكو يرمقه بمزيجٍ من الانبهار والاحتقار. باغته بالمقترح: مقابلَ هذا المبلغ السخيّ من المال، سيأتي المصوّر في اليوم التالي صحبة ابنته إلى قصر بونس وسيتركها هناك حتّى المساء. ذُهِل سنتس، نظر

إلى ابنته ثمّ إلى بونس. ضاعف الصناعيُّ المبلغ. رفض سنتس دون أن يفوه بكلمة. «فكّر في الأمر» هذا كلُّ ما قاله بونس وهو يودّعه.

أمضى المصوّر ليلته أرقًا. وجدت لايا أباها يبكي في ظلمة الاستديو وأمسكت بيده. قالت له بأن يصحبها إلى ذلك البيت، وأنّها ستكون الملاك الذي يلاعب السيّدة. وصلا إلى أبواب القصر في منتصف الصباح. استلم سنتس المالَ عن طريق أحد الخدم وقيل له بأن يعود في السابعة مساءً. رأى لايا تختفي داخل الفيلا، وجرجر نفسه يهبط الطريق حتّى عثر على حانة في الجانب الأعلى من شارع بالميس، حيث شرب كأس براندي، ثمّ كأسًا أخرى، فأخرى، إلى أن اجترع كلّ الكؤوس المطلوبة للوصول إلى الساعة التي ينبغي له فيها استعادة ابنته.

أمضت لايا ذلك اليوم تلعب مع السيّدة إيولاليا بدمى الطفلة الراحلة. ألبستها السيّدة ثياب المتوفّاة، قبّلتها واحتضنتها بين ذراعيها تروي لها الحكايات وتحدّثها عن إخوتها، وعمّتها، وعن قطٍّ كان لديهم ثمّ هرب من البيت. لعبتا الغمّيضة وصعدتا إلى العلّيّة. ركضتا في الحديقة وتناولتا الوجبة المسائيّة عند نافورة الباحة، ورميتا لُبابَ الخبز إلى الأسماك الملوّنة المنسابة في مياه البركة. وعند الغروب، استلقت السيّدة إيولاليا على السرير ومعها لايا، وشربت رشفات طفيفة من كأس الماء المخلوط باللودانيوم. وهكذا تعانقتا تحت الظلام وغفت كلٌّ منهما إلى أن أيقظ أحد الخدم لايا ورافقها إلى الباب حيث كان

والدها ينتظرها بعينين محمرَّتين من العار. سقط على ركبتيه عندما رآها، وعانقها. أمدَّه الخادم بمظروفٍ يحوي المال وأملى عليه بالإتيان بابنته في الموعد نفسه من اليوم التالي.

ذهبت لايا كلّ يومٍ طوال ذلك الأسبوع إلى قصر بونس لتتحوّل إلى الملاك الصغير، وتلهو بألعابه وترتدي ثيابه وتحمل اسمه وتختفي في غرفة الطفلة الميّتة التي تمارس سحرها في كلّ زاويةٍ من ذلك البيت الحزين والمعتم. وفي اليوم السادس انتحلت ذكرياتِ الصغيرة مرغريتا، وتبخَّرَت حياتها الماضية. تحوّلت إلى تلك الشخصيّة المبتغاة وتعلّمت أن تتقمّصها بشكل أكثف ممّا كانت عليها الراحلةُ نفسها. تعلّمت أن تقرأ النظرات والرغبات، وأن تسمع رجفة القلوب المريضة بالفقدان، وأن تبتكر الحركات واللمسات التي تؤاسي المرءَ من جراحه التي لا تُشفى. تعلّمت من حيث لا تدري، كيف تتحوّل إلى شخصٍ آخر، وأن تكون لا شيء ولا أحد، وأن تحيا في أجساد آخرين. لم تطلب من أبيها يومًا ألّا يأخذها إلى هناك، ولم تروِ له ما كانت تفعله خلال الساعات الطويلة التي تمضيها. ثمل المصوّرُ بالمال والرخاء، فأغرق ضميره مدّعيًا أنّه يصنع خيرًا ويطبّق مبدأ الشفقة المسيحيّة. «لستِ مضطرّة إلى الذهاب إلى ذلك البيت إن كنتِ لا تريدين، مفهوم؟ - كان يقول لها كلَّ مساء عندما تعود من قصر بونس. - لكنّنا نحسن إليهم».

اختفى الملاك الصغير في اليوم السابع. قالوا إنّ السيّدة إيولاليا استيقظت في ساعة متأخّرة من الليل، ولم تجد الطفلةَ

إلى جانبها، فراحت تبحث عنها في أرجاء البيت كلّه وهي تلهج هوسًا وانفعالًا، موقنةً أنّهما ما تزالان تلعبان الغمّيضة. اقتادها اللودانيوم والظلام إلى الحديقة، حيث توهَّمت أنّها تسمع صوتًا وتلتقي بنظرة ملاكٍ صغير محفور الوجه بعروقٍ زرقاء، وشفتاه مسوَّدتان من السمّ، يناديها من مياه البركة ويدعوها للغطس فيها وقبول عناق الظلمات الجليديّ والصامت الذي يجذبها ويهمس لها: «أمّاه، سنكون الآن معًا وإلى الأبد، تلبيةً لرغبتكِ».

ظلّ المصوّر وابنته يسافران على مدى أعوام بين مدنٍ وقرى في طول البلاد وعرضها حاملَين معهما سيرك الخُدَع والمُتَع. وقبل أن تتمّ لايا عامها السابع عشر كانت قد تعلّمت أن تتقمّص حيواتٍ ووجوهًا حالما ترى وثيقةً ما، أو صورةً قديمة، أو قصّةً منسيّة، أو ذكرياتٍ ترفض أن تموت. وكانت مهارتها تفيد أحيانًا بإثارة الشوق إلى حبٍّ أوّلٍ سرّيٍّ أو ممنوع، فيستيقظ لحمها المرتعش تحت أيدي عشّاقٍ على وشك الانهيار، هم أناسٌ استطاعوا شراء كلَّ شيء في الحياة ما عدا أشدّ ما يرغبون فيه ففاتهم.

تجّارٌ متخمون بالنقود يفتقرون إلى الحياة، يصحون بعد هنيهةٍ على سرير نساءٍ أنشأته الفتاةُ انطلاقًا من رغبةٍ مكبوتة، من صفحةٍ في دفتر يوميّات أو من صورةٍ عائليّة، فتولِّد في قلوبهم ذكرى سترافقهم طوال الحياة. وكانت معجزة مهارتها تصل إلى حدّ الكمال أحيانًا بحيث ينسى الزبون أنّه حيالَ إيهامٍ يقوم على تعمية حواسّه لتسميمه بالمتعة مدّةً لا تتجاوز اللحظات. يصدّق

الزبون حينذاك أنّ الفتاة هي ما تدّعي أنّها تجلّت فيه، وأنّ الحياة بُعِثَت بأطلال ما يبتغيه، فيرفض أن يتلاشى ذلك السراب، ويصبح مستعدًّا لتبديد ثروته أو حياته الخاوية المقفرة التي عاشها حتّى تلك اللحظة، لمجرّد أن يعيش بقيّة وهمه في أحضان تلك الفتاة التي تتقمّص أشدَّ ما يهيج شهوتَه وتتجسّد به.

كان الأمر غالبًا ما يحدث، لأنّ لايا تعلّمت قراءة روح الرجال وولههم بدقّةٍ تُشْعِرُ أباها أحيانًا بأنّ اللعبة تجاوزت حدودها. فكلّما حدث ذلك هرب الاثنان تحت جنح الظلام كأنّهما ملاحقان، واختبآ في مدينةٍ أخرى، وطرقاتٍ أخرى، طوال أسابيع. فتمضي لايا أيّامها منغلقةً في جناح فندق فاخر، نائمةً طوال الوقت تقريبًا، غارقةً في سبات الصمت والحزن، بينما يقصد والدها إلى خمّارات المدينة وملاهيها لينفق خلال أيّامٍ قصيرةٍ كلَّ ما جنياه. تتحطّم الوعود بالانصراف عن هذه الحياة في كلّ مرة، ويعانقها أبوها ويهمس لها بأنّهما سيعيدان الكَرَّة مرّة أخرى فقط، مع زبونٍ آخر فقط، وأنّهما سيلوذان في بيتٍ مجاورٍ لبحيرة حيث لن تضطرّ لايا أبدًا إلى إحياء غرائز أيّ رجلٍ ثريٍّ ومصابٍ بمرض العزلة. وكانت لايا تعلم أنّ والدها يكذب، يكذب من دون أن ينتبه إلى ما يفعله، مثل كلّ الكذّابين الكبار الذين يبدأون بالكذب على أنفسهم إلى أن يصبحوا عاجزين عن تمييز الحقيقة حتّى لو طعنتْ قلوبهم. كانت تعلم أنّه يكذب وتسامحه، لأنّها تحبّه ولأنّها في أعماق نفسها ترغب في استمرار اللعبة، بحيث تتمكّن من العثور على شخصيّةٍ جديدة

سريعًا لكي تبعث الحياة فيها ولتملأ بها - وإنْ لأيّام معدودةٍ أو ساعاتٍ قصيرة فقط - ذلك الفراغ العظيم الذي ينمو في فؤادها وينهشها حيّةً في الليل، عندما تكون تحت الأغطية في الفندق تنتظر أن يعود أبوها سكرانَ بالخمر والفشل.

كانت لايا في كلّ شهر تتلقّى زيارةً من رجلٍ ناضج مكسور النفس، يسمّيه أبوها بالدكتور سنتس. وكان الطبيب رجلًا ضعيفًا يعيش تحت رحمة عدستيه اللتين يأتمنهما على إخفاء نظراته المثقلة باليأس والهزيمة، كان في الماضي قد عاش حياةً أفضل. ففي شبابه، والسنوات التي شهدت ازدهارًا، كانت لديه عيادةٌ راقيةٌ في شارع أوسياس مارش تدخلها سيّداتٌ وعذارى في عمر الزواج أو ما يوحي بأنّهنّ مُقبِلاتٌ على الزواج. وهناك يفرجن سيقانهنّ ويتمدّدن في الغرفة ذات السقوف الزرقاء، هنَّ ممثّلات لصفوة الطبقة البرجوازيّة البرشلونيّة، لا أسرار يخفينها عن الطبيب الودود ولا يخجلن منه. فقد حملت يداه إلى هذا العالم مئاتٍ من المولودين حسان المظهر، كما أنقذت معايناته ونصائحه حياة كثير من مريضاته وغالبًا ما حافظ على سمعتهنّ وهنَّ الفاجرات اللواتي تحتفظ أجسادُهنّ، لا سيّما في الجزء الأكثر نبضًا واتّقادًا، بأسرارٍ تفوق عدد الأسرار المحيطة بلغز الثالوث المقدَّس.

يتميّز الدكتور سنتس بصفاء ذهن ونبرةٍ ودّيّة وسليمة لمَن لا يرى عيبًا أو حياءً في أشياء الحياة. بشوشٌ وهادئ، يجيد كسب الثقة والتقدير من النساء والفتيات الخجولات كالراهبات

والرهبان المستأجَرين الذين لا يتلمّسون عوراتهم إلّا تحت الظلام أو بناءً على طلبٍ من الشيطان. كان يشرح لهنّ آليّة أجسادهنّ، بلا خجلٍ أو تصنُّع، ويعلِّمهنّ ألّا يشعرن بالحياء ممّا خلقه اللّه بحسب قوله. وبطبيعة الحال، لا يمكن لرجلٍ موهوبٍ وناجح، نزيهٍ ومستقيم، لا يمكن له أن يدوم طويلًا في المجتمع الفاضل، ولا بدّ أن تحين ساعته عاجلًا غيرَ آجل. إنَّ سقوط الصالحين يحدث دومًا على يد المدينين لهم أكثر من غيرهم. نحن لا نخون مَن يسعى إلى إغراقنا، إنّما مَن يمدّ يده لإنقاذنا، ربّما لا لشيءٍ سوى لإنكار ما يتعيَّن علينا من امتنانٍ تجاهه.

وفي حالة الدكتور سنتس، كانت الخيانة تنتظره منذ أمدٍ بعيد. إذ عالج الطبيب الودود سيّدةً من عليّة القوم على مدى أعوام، وكانت تمرّ في زواجٍ لا مبادلةَ فيه للمسات أو الكلمات تقريبًا، مع رجلٍ عرفتْه توًّا ونامت معه مرّتين خلال عشرين عامًا. تعلّمت السيّدة، بحُكم العادة، أن تعيش وقلبُها مخنوقٌ بشباك العناكب، إلّا أنّها لم تستسلم لإخماد النار ما بين فخذيها. وفي مدينةٍ يدأب فيها الرجال النبلاء على معاملة زوجاتهم بوصفهنَّ قدّيساتٍ وعذارى ومعاملة زوجات الآخرين على أنّهنّ ماجناتٌ وبائعات هوى، لم تتكلّف السيّدة عناءً كبيرًا في العثور على عشّاقٍ وحجّاجٍ تقضي بصحبتهم على الملل وتتذكّر أنّها على قيد الحياة، حتّى لو كانت تلك الحياة تمتدّ من عنقها فما دون حصرًا. وكانت المغامرات والمجازفات على

أسِرَّةِ الآخرين محفوفةً بالمخاطر، وليس لدى السيّدة أسرارٌ تخفيها عن الطبيب الودود، الذي تكفّل بتجنيب وقوع فخذيها الناصعين والهائمين في مغبّة شرورٍ وآلامٍ سيّئة السمعة. وفعلت الأدوية المستخلصة، والمراهم، ونصائح الطبيب فعلها في صون السيّدة ووضعها في حالةٍ من الصبوة الطاهرة على امتداد سنوات.

وشاءت الحياة، مثلما تفعل عادةً كلّما سنحت لها الفرصة، أن يُثاب الطبيبُ على إحسانه باللؤم والخبث. وإنّ المجتمع الفاضل في أيّ مدينة هو عالمٌ صغير، صغيرٌ بقدر مخزونه من النزاهة، وكان من البديهيّ أن يحين ذلك اليوم الملعون الذي يُقدِم فيه واحدٌ من عشّاق نصف الساعة أولاء، مدفوعًا بالوضاعة أو النكاية، أو بمصلحةٍ بحت، على كشف الحياة السرّيّة والعاطفيّة لسيّدةٍ وحدانيّة وحزينة على مرأى صديقاتها المجبولات على الحسد. حكاية العاهرة ذات الجوارب الحرير، هكذا لقَّبها نمّامٌ له طموحٌ أدبيّ، وسرى اللقب كالدماء الساخنة في قلب مجتمعٍ ثرثار يعيش على القيل والقال والتشكيك والتشهير.

وصار السادة الموقّرون يتندَّرون ضاحكين وساخرين بتوصيف أدقّ تفاصيل إغراءات السيّدة التي انحطّت إلى مستوى عاهرة ذات جوارب حرير، بينما كانت زوجاتهم الموقّرات والمحتَقرات يتهامسن كيف خدعتهنّ تلك الفاجرةُ مشوَّهةُ الصيت وغدت صديقةً لهنّ، وكيف ارتكبت موبقاتٍ لا يليق بهنّ

ذكرُها، وكيف أضرّت بأرواح أزواجهنّ وأبنائهنّ وأفسدت أعضائهم السفلى، وهي تتبختر على أربع ممتلئة الفم، وتستعرض بهلوانيّاتها اللغويّة التي لم يتعلّمنها خلال أحد عشر عامًا من ارتياد قاعات جامعة القلب المقدّس. لم تتأخّر الحكاية التي بولغ في تضخيمها كلّما انتقلت من لسان إلى لسان، لم تتأخّر في الوصول إلى مسمع الرجل المحترم زوج مَن باتت تُعرَف بالعاهرة ذات الجوارب الحرير. قيل فيما بعد أنْ لا أحد يتحمّل الذنب، وإنّ السيّدة اختارت ملء إرادتها أن تهجر بيت العائلة، وأن تتخلّى عن ملابسها ومجوهراتها، وانتقلت إلى شقّة باردة، لا ضوء فيها أو أثاث، في شارع مايوركا، وإنّها ذات يومٍ من شهر يناير استلقت على السرير قبالة النافذة المفتوحة واجترعت نصف قارورة اللودانيوم، حتّى توقّف قلبها عن النبض، وأتلف الصقيع عينيها المفتوحتين على ريح الشتاء الجامدة.

عثروا عليها عاريةً، لا رفيق لها سوى رسالةٍ طويلة بحبرٍ ما يزال طازجًا تعترف فيها بحكايتها وتلقي اللائمة كلّها على الطبيب سنتس، الذي أفقدها الصواب بجرعاته الدوائيّة وكلماته الماكرة، وأقنعها أن تسلِّم أمرها لحياة الهجران والفسوق التي لن تنجو منها سوى عن طريق الصلوات وملاقاة الربّ عند أبواب المطهر.

انتشرت الرسالة على نطاقٍ واسع بين الأشراف، سواء بنسختها الكاملة أم بموجزٍ عنها، ولم يكد يمرّ شهر إلّا وامّحت

أجندة عيادة الطبيب سنتس، في حين كان بمظهره الصموت والهادئ يتحوّل إلى منبوذٍ بالكاد تُوجَّهُ إليه نظرةٌ أو كلمة. وبعد أشهرٍ من تردّي الحال، بحث الطبيب عن عملٍ في مستشفيات المدينة، فلم يوافق أحدٌ على توظيفه لأنّ زوج الفقيدة - التي كانت العاهرةَ ذات الجوارب الحرير وصارت القدّيسةَ الشهيدة ذات المعطف الأبيض - رجلٌ ذو نفوذ وكان واضحًا في وعيده بأنّ كلَّ مَن يهادن الطبيبَ سنتس سينضمّ إليه في بلد المنسيّين.

ومع مرور الوقت والإقصاء، هبط الطبيب الودود من سُحُب برشلونة المبطّنة والمرفَّهة وانتقل للسكن في أقبية شوارعها اللامتناهية، حيث استفادت مئاتُ العاهرات بلا جوارب حريريّة ومئاتُ الأرواح المحرومة، استفادت من خدماته ونزاهته، وربّما لم يقاضوه مقابل ذلك مالًا لا يتوافر لديهم، إنّما احترامًا وعرفانًا. وبعد أن باع العيادة في شارع أوسياس مارش والفيلا الصغيرة في سان خرباسيو بأرخص الأثمان لكي يعيش في الزمن العصيب، حصل على شقّةٍ متواضعة في شارع كوندال، حيث سيفارق الحياة بعد عدّة سنوات، متعبًا وسعيدًا، خَلِيَّ القلبِ من الحسرات.

وكان المصوّر قد تعرَّف عليه في تلك السنوات الأولى، عندما كان الطبيب يجوب مواخير الدائرة الخامسة وملاهيها، مدجّجًا بالأدوية والحسّ السليم. حاول المصوّر عرض مواهب ابنته عليه، بلا مقابل. كان قد سمع أنّ الطبيب فقد ابنةً له تدعى لايا قبل أن تتعدّى عامَها الرابع عشر، وأنّ زوجته هجرته بعد

ذلك بمدّة قصيرة، عاجزةً عن احتمال الفقدان الذي كان يجمع بينهما. ومَن عرف الطبيبَ الودودَ قال عنه إنّه يعيش تحت وطأة رحيل لايا المأساويّ، الذي أخفق في تناسيه على الرغم من بذل جهودٍ كبيرة. خلّص الطبيبُ المصوّرَ من التهابٍ في الأذن كاد يكلِّفه السمعَ والرشدَ، وأراد أن يجازيه بمكافأة عينيّة، فبعد أن اطّلع على صور الميّتة وذكرياتها بات موقنًا بمقدرته على استعادتها إلى الحياة وغمر قلب الطبيب بأحَبِّ الناس إليه، وإنْ للحظاتٍ وجيزة. رفض الطبيبُ العرضَ، لكنّه وطّد الصداقة مع المصوّر وصار طبيبًا لابنته التي واظب على معاينتها شهريًّا واستطاع تجنيبها من أمراضٍ وبلايا ناجمةٍ عن مهنتها.

كانت لايا تودّ الطبيب كثيرًا وتترقّب زياراته دائمًا. هو الرجل الوحيد من بين كلّ الرجال الذين عرفتهم لا ينظر إليها بشهوانيّة، ولا يستعرض عليها نزواتٍ لا طائل منها. وكان بوسعها أن تتكلّم معه عن أشياء لا تبوح بها لوالدها أبدًا، وأن تأتمنه على مخاوفها وأسباب قلقها. وعلى الرغم من أنّ الطبيب لا يحكم على مرضاه أخلاقيًّا ولا يندّد بالشغل الذي اختارته لهم الحياة، فإنّه أفصح عن اعتراضه على الطريقة التي كان يسلكها المصوّرُ في بيع أجمل السنوات من عمر الطفلة. فكان أحيانًا يحدّثها عن ابنته التي فقدها، وهي تعلم يقينًا بأنّ الطبيب يخصّها دون الجميع في بوح أسراره وذكرياته، ولا حاجة لأن يخبرها أحدٌ بذلك. صارت تتمنّى في أعماق نفسها أن تأخذ محلَّ لايا الأخرى، أي أن تصبح ابنة هذا الرجل الطيّب والتعيس، وأن

تهجر المصوّرَ الذي أحاله الجشع والبهتان إلى غريبٍ يرافقها متجسّدًا بأبيها. فما حرمتها منه الحياةُ، سيمنحه لها الموت.

*

بعد أن أتمّت عامها السابع عشر، أدركت لايا أنّها حامل. قد يكون والد الجنين واحدًا من أولئك الزبائن الذين يسدِّدون ديون قمار المصوّر بمعدّل ثلاثة أسبوعيًّا. أخفت لايا الحملَ عن أبيها في بادئ الأمر، وخلال الأشهر الأولى اختلقت ألف عذرٍ لتجتنب زيارات الدكتور سنتس. أمّا ما تبقّى فقد تكفّلت به المشدّاتُ وبراعتُها بإيهام الآخرين بأنّهم يرون فيها ما يرغبون في رؤيته. وفي الشهر الرابع، انتبه أحد الزبائن إلى الحالة، فهو طبيبٌ وكان ندًّا للدكتور سنتس وقد ورث معظمَ مرضاه. انتبه في أثناء لعبةٍ كانت تؤدّيها لايا مكبّلةَ اليدين والقدمين بالقيود، وتمثِّل أنّها خاضعةٌ لفحصٍ طبيٍّ همجيّ من قِبَلِ طبيبٍ يهتاج لدى سماع آهات المرضى. تركها نازفةً وعاريةً ومشدودةَ الوثاق على السرير، حيث وجدها أبوها على تلك الحال بعد ساعات.

تولّاه الفزع إثر اكتشافه الحقيقة، فسارع لاقتياد ابنته إلى امرأةٍ مدبِّرة تمارس سحرها الشرّير في أحد سراديب شارع أفنيون، لعلّها تخلّصها من ابن الزنا النبيل الذي تحمله في رحمها. أحيطت لايا بالشموع ودلاء الماء النتن، ومُدِّدَت على فراشٍ بأوساخها ودمائها، وقالت للمشعوذة العجوز إنّها خائفة وإنّها لا تريد إيذاء الجنين البريء. وبإيماءةٍ من المصوّر، أشربتْها المشعوذةُ سائلًا مخضوضرًا وكثيفًا أذهَبَ حواسّها

وأبطَلَ إرادتها. أحسّت أنّ أباها يمسكها من معصميها وأنّ المشعوذة تفرِّج لها ساقيها. استشعرت بشيءٍ باردٍ وحديديّ يشقّ طريقه في أحشائها كأنّه لسانٌ جليديّ. وتوهَّمت أنّها أثناء الهذيان تسمع بكاء طفلٍ يتبرّم داخل بطنها ويرجوها أن تبقيه حيًّا. وعندئذٍ استبدّ بها انفجارُ الألم، وأفقدها الوعيَ كلّيًّا، وشعرت بالنار تحرقها من الداخل. وكان آخر ما استطاعت تذكُّره أنّها غارقةٌ في بحيرةٍ من دماء سوداء وحامية، وأنّ شيئًا أو أحدًا يسحبها من ساقيها.

استيقظت على الفراش نفسه تحت عين المشعوذة اللامبالية. شعرت بالوهن. يستنزفها ألمٌ أصمٌّ ومستعرٌ في البطن والفخذين، كما لو أنّ سائر جسمها استحال ندبةً متقيّحة. تلاقت نظرتها المحمومة بنظرة المشعوذة. سألتها عن أبيها. هزّت المشعوذة رأسها والتزمت الصمت. فقدت لايا حواسّها مرّةً أخرى، وعندما فتحت عينيها أدركت أنّ الفجر يشرق متغلغلًا من نافذةٍ صغيرةٍ على مستوى الطريق. كانت المشعوذة تولي إليها ظهرها، وتحضِّر مزيجًا تتضوّع منه رائحة العسل والكحول. سألت لايا عن أبيها. أعطتها المشعوذة فنجانًا ساخنًا وقالت لها أن تشربه لكي يتحسّن وضعها. شربت فهدَّأ البلسمُ الساخن واللزج احتضارها الذي كاد ينهش بطنها.

- أين أبي؟

- هل ذاك الرجل أبوكِ؟ - سألتها المشعوذة بابتسامةٍ مريرة.

كان المصوِّر قد تخلّى عنها، ظنًّا منه أنّها ماتت. أخبرتها المشعوذة أنّ قلبها توقّف عن النبض دقيقتين، وحين رآها أبوها ميّتةً فرَّ بجلده.

- أنا أيضًا ظننتُ أنّكِ متِّ. لكنّكِ بعد دقيقتين فتحتِ عينيكِ واستعدتِ أنفاسكِ. احسَبي نفسكِ محظوظةً يا ابنتي. لا بدّ أنّ أحدًا في السماء يحبّكِ كثيرًا، فلقد وُلدتِ من جديد.

جمعت لايا ما تيسّر لها من القوى ونهضت على قدميها وذهبت إلى فندق كولون الذي عاشا في غرفه ثلاثةَ أسابيع. أعلمها موظّف الاستقبال أنّ المصوّر قد غادر في اليوم السابق من دون أن يترك عنوانًا. أخذ معه كلَّ ملابسه ولم يترك سوى ألبوم من صور لايا.

- ألم يترك لي أيَّ رسالة؟

- لا يا آنسة.

أمضت لايا أسبوعًا تبحث عنه في أصقاع المدينة. لم يره أحدٌ في الملاهي أو الحانات التي كان يرتادها في العادة، مع أنّ الجميع أوصوها بأن تخبره، في حال عثرت عليه، أن يسدّد ديونه وحساباته المعلّقة. فهمت في الأسبوع الثاني أنّها لن تجده أبدًا. ولأنّها كانت بلا منزلٍ ولا أصدقاء، اتّجهت إلى الدكتور سنتس الذي أحسّ بفطرته أنّها تعاني معضلةً حالما رآها، فأصرَّ على معاينتها. وعندما تحقّق الطبيب الودود من الأضرار التي تسبّبت بها المشعوذة العجوز في أحشاء الفتاة، انفجر باكيًا. في

ذلك اليوم حصل الرجل على ابنة، وحصلت لايا للمرّة الأولى على أب.

عاشا معًا في شقّته المتواضعة في شارع كوندال. كان مدخول الطبيب زهيدًا، لكنّه كافٍ لتسجيل لايا في مدرسةٍ للفتيات ودعم مقولة «كلّ شيء سيمضي على ما يرام» مدّةَ عامٍ كامل. تآكلت ألياف الطبيب بسبب عمره المتقدّم وبعض الشرود الذي رافق جرعات الإثير التي كان يتزوّد بها خلسةً في محاولةٍ لتهوين آلام حياته. بدأت يداه ترتجفان وأمسى يفقد بصره تدريجيًّا. كان الطبيب الودود ينطفئ فتركت لايا المدرسة لتعتني به.

تزامن فقدانه البصرَ بفقدانه مفهوم الأشياء أيضًا، فبات يعتقد أنّ لايا هي ابنته الحقيقيّة، عائدةً من ملكوت الموتى لترعاه. وأحيانًا كانت لايا نفسها تصدِّق ذلك حينما تحضنه بين ذراعيها وتطلق له عنانَ البكاء. وعندما تبدّدت مدّخرات الطبيب القليلة أصلًا، رأت لايا أنّها مرغمةٌ على نبش فنونها والعودة إلى الميدان.

وإذ تحرّرت من علاقات أبيها القذرة، اكتشفت أنّ قدراتها تضاعفت. فلقد تنافست أفخرُ محلّات المدينة للحصول على خدماتها في غضون بضعة أشهر. صارت تكتفي بزبون واحد في الشهر، وتفرض أعلى سعر. كانت تدرس الحالة طوال أسابيع، وتخلق الهويّةَ الخياليّة التي ستتجسّد فيها بضع ساعات. ولم تعد تقبل الزبون نفسه مرّتين. ولم تكشف عن هويّتها الحقيقيّة إطلاقًا.

شاع في الحيّ أنّ الطبيب العجوز يساكن فتاةً باهرةَ الجمال، فنهضت زوجته السابقة من رماد الظلمات والأحقاد، وأرادت العودة إلى البيت بعد سنواتٍ طويلة من الهجران لتجد أنّها تكدِّر شيخوخة رجلٍ ما عاد يرى ولا يذكر، وأنّ الحقيقة الوحيدة هي مساكنته لفتاةٍ يتوهّم أنّها ابنته المتوفّاة، وتقرأ على مسمعه كتبًا قديمةً وتحضنه وتسمّيه أبي وتشعر بذلك حقًّا. استعانت السيّدة سنتس بقضاةٍ وضبّاط واستطاعت أن تطرد لايا من البيت، ومن حياة الطبيب تقريبًا. فالتجأت الفتاة إلى مؤسّسةٍ تديرها امرأةٌ خبيرةٌ بشؤون المخدع سابقًا، سيمون دو سانغييه. أمضت عدّة أعوام وهي تحاول أن تنسى مَن كانت، وتحاول أن تنسى أنّ الطريقة الوحيدة للشعور بالحياة هي في إعطاء الحياة للآخرين. وكانت تعرّج على بيت الطبيب في الظهيرة، عندما تسمح لها زوجته، فتُخرِجُهُ للتنزّه. ويتّجهان إلى أماكن وحدائق يذكر أنّه جاء إليها صحبة ابنته، وكانت لايا التي يذكرها تقرأ عليه الكتب هناك، وتنعش ذكرياته التي لم يعشها لكنّه طوَّعَها لتصبح ذكرياته. أمضيا قرابة ثلاث سنوات على ذلك المنوال، كان الطبيب في خلالها ينطفئ أسبوعًا بعد أسبوع، إلى أن حان ذلك اليوم الماطر الذي لحقتُها فيه أنا إلى بيت الطبيب، وعلمت لايا أنّ أباها - الأب الوحيد الذي كان لها - توفّي في تلك الليلة واسمُها مرسومٌ على شفتيه.

وردة النار

وهكذا، عندما حان الثالث والعشرون من أبريل، التفت المعتقلون في المهجع للنظر إلى داڤيد مارتين، الذي كان راقدًا في ظلمة زنزانته مغمضَ العينين، وطلبوا منه أن يروي عليهم حكايةً للقضاء على الضجر.

- سأروي عليكم حكاية - قال - حكايةً عن الكتب، عن التنانين والورود، بحسب ما يفرضه تاريخ هذا اليوم، لكنّها على الأخصّ حكايةٌ عن الظلال والرماد، بحسب ما تفرضه الأزمان...

(من المقتطفات الضائعة من *سجين السماء*)

1

تروي الأخبار أنّه عندما وصل مشيِّدُ المتاهات إلى برشلونة على متن سفينةٍ آتيةٍ من الشرق، كان يحمل في جعبته نواة اللعنة التي ستصبغ سماء المدينة بالنار والدماء. حدث ذلك في العام الميلاديّ ١٤٥٤ حين أباد وباءُ الطاعون الشعبَ خلال الشتاء، مخلِّفًا مدينةً محجوبةً بستارةٍ من الدخان الأغبر المتصاعد من المحارق التي التهمت مئاتٍ من جثث الموتى وأكفانهم. وكانت دوّاماتُ البخار الخانق تُرَى بالعين من البعيد زاحفةً بين الأبراج الحصينة والأبنية لتتجلّى بنذير المآتم المشؤوم وتحذّر المسافرين من الاقتراب من الأسوار وضرورة الاستدارة إلى عرض البحر. أصدر الديوان المقدّس لمحاكم التفتيش مرسومًا يقضي بإغلاق المدينة، وتوصّلت تحقيقاته إلى أنّ منشأ الوباء بئرٌ مجاورةٌ للحيّ اليهوديّ في كال دي ساناوخا، حيث دبّرَ عددٌ من المرابين الساميّين مؤامرةً شيطانيّةً وسمّموا الماء. بيّنةٌ لا لبس فيها يؤكّدها الاستجواب الذي استمرّ أيّامًا متواصلة. وبعد أن صودرت أملاكهم الوفيرة ورُمِيَ ما تبقّى من رفاتهم في حفرة المستنقع، لم يعد من حاجةٍ إلّا للأمل في أن تسهم صلواتُ

المواطنين الشرفاء في تنزيل بركات الربّ على برشلونة. وكلّما مرّ يومٌ تناقص عدد الموتى وتزايد عدد أولئك الذين شعروا بأنّ الأسوأ قد مضى وانقضى. لكنّ القدر شاء أن يكون الأموات هم المحظوظين والناجون هم الذين سرعان ما سيحسدون مَن رحلوا عن وادي المصائب ذاك. وعندما تجرّأ صوتٌ خافتٌ على التصريح بأنّ عذابًا شديدًا سيقع من السماء لتطهير العار الذي لحق بالتجّار اليهود كما يشاء الربّ، كان قد فات الأوان. لم يقع شيءٌ من السماء، ما عدا الرماد والغبار. أمّا البلاء فقد وصل، للمرّة الأولى، من البحر.

2

شُوهِدت السفينة عند الفجر. بعضُ الصيّادين الذين كانوا يصلحون شباكهم قبالة مورايا دي مار، رأوها تبرز من بين الضباب الذي أنهضه المدّ. وحينما جنحَ حيزومُ السفينة إلى الشاطئ، ومال بدنُها إلى الجانب الأيسر، تسلّق الصيّادون إلى متنها. كانت رائحةٌ نتنة وثاقبة تنبعث من باطنها. وكان عنبرها غارقًا، وما لا يقلّ عن اثني عشر تابوتًا يطفو ما بين الحطام. في حين أنّ إدموند دي لونا، مشيّد المتاهات والناجي الوحيد في تلك الرحلة، عُثِرَ عليه مكبّلًا عند الدفّة وقد سمّرته الشمس. ظنّوا أنّه مفارق الحياة في البدء، لكنّهم إذ تفحّصوه لاحظوا أنّ

معصميه ما يزالان ينزفان من تحت الأربطة، وأنّ شفتيه تلفظان أنفاسًا متجمّدة. كان في حوزته دفترٌ جلديّ مربوطٌ بحزامه، إلّا أنّ الصيّادين لم يتمكّنوا من الاستيلاء عليه، ففي تلك اللحظة دخلت الميناءَ مجموعةٌ من الجند، وكان قائدهم ينفّذ أوامر القصر الأسقفيّ الذي أُحيِطَ علمًا بوصول السفينة، فأمر بنقل المحتضر إلى مستشفى سانتا مارتا القريب وأرصد رجاله لمراقبة الحطام، ريثما يصل ضبّاط الديوان المقدّس لتفتيش السفينة وتبيين الوقائع بالطريقة المسيحيّة المثلى. سُلِّمَ دفتر إدموند دي لونا إلى المحقّق الكبير خورخي دي ليون، فارس الكنيسة الطموح واللامع، الذي كان على ثقةٍ بأنّ واجبه العظيم في تطهير العالم سيوصله باكرًا إلى مرتبة الصالحين والقدّيسين وأنوار الإيمان الأبديّة. أجرى خورخي دي ليون تحرّيًا سريعًا واستنتج أنّ الدفتر محرَّرٌ بلغةٍ غريبة عن الدين المسيحيّ، وأمر رجاله بالبحث عن طبَّاعٍ يدعى رايموندو دي سيمبيري، صاحب مشغلٍ متواضع بجانب باب سانتا آنّا، والذي كان قد سافر كثيرًا في شبابه فأجاد عددًا من اللغات أكثر ممّا يُنصَحُ به لمؤمنٍ مسيحيّ شريف. أرغِمَ الطبَّاع سيمبيري، تحت التهديد بالتعذيب، على أن يُقسِمَ بحفظ كلِّ أسرار ما سيُكشَف على ناظريه. وحينذاك سُمِحَ له بمعاينة الدفتر في غرفةٍ تحت مراقبة الحرس في الطابق الأعلى من المكتبة المنزليّة لكبير الشمامسة بجانب الكاتدرائيّة. كان المحقّق خورخي دي ليون يراقبه باهتمامٍ وتلهُّف.

- أعتقد أنّ النصَّ قد حُرِّرَ بالفارسيّة، قداستكم. - غمغم سيمبيري مذعورًا.

- لم أصبح قدّيسًا بعد. - حدّد المحقّق - ولكن، كلُّ شيءٍ يُصلَّح. تابع...

وهكذا كرَّس طبّاع الكتب نفسه طوال تلك الليلة للعمل لمصلحة المحقّق الكبير في قراءة وترجمة اليوميّات السرّيّة لإدموند دي لونا، المغامر وحامل اللعنة التي ستقتاد الوحشَ إلى برشلونة.

3

قبل ثلاثين عامًا، انطلق إدموند دي لونا من برشلونة باتّجاه الشرق ولعًا بالمغامرة وبحثًا عن الأعاجيب. قاده عبورُ البحر المتوسّط إلى جزرٍ محظورة لا تظهر على خرائط الملاحة، وإلى أَسِرَّةِ أميراتٍ وفتياتٍ لا يجوز الكشف عنهنّ، وإلى الاطّلاع على أسرار الحضارات المدفونة في الزمن، وإلى الإقبال على علوم تشييد المتاهات وفنونه، هذه الموهبة التي ستجعله شهيرًا ليحوز بفضلها على عملٍ وثروةٍ في خدمة السلاطين والأباطرة. ومع مرور السنوات، لم يعد تراكم المتع والثراء يعني أيّ شيءٍ بالنسبة إليه. فلقد أروى ظمأه للتطلُّع والطموح أكثر ممّا يحلم به أيُّ إنسان، وكان آنذاك يدخل سنَّ النضج مدركًا أنّ أيّامه باتت تسير

نحو المغيب، فعاهد نفسه بألّا يقدِّم خدماته بعدُ إلّا مقابل أكبر المكافآت: المعرفة الممنوعة. وكم رفض من دعواتٍ لتشييد متاهاتٍ لا يضاهيها بناءٌ من حيث الإدهاش والتعقيد، لأنّهم لم يعرضوا عليه مقابلًا يثير رغائبه. وحين كاد يوقن أنّه حصد كلّ كنوز الدنيا، وَرَدَهُ أنّ إمبراطور مدينة القسطنطينيّة يطلب خدماته، وكان مستعدًّا في المقابل أن يقدِّم له سرًّا عتيقًا لم يطّلع عليه إنسانٌ خلال قرون. وإذ كان يعاني من السأم، أُغرِيَ بالفرصة الأخيرة التي من شأنها أن توقد جذوة روحه من جديد، فذهب إدموند دي لونا لملاقاة الإمبراطور قسطنطين في قصره. كان قسطنطين متيقّنًا بأنّ حصار السلاطين العثمانيّين سيضع نهايةً لإمبراطوريّته عاجلًا أم آجلًا، وسيمحو عن وجه الأرض كلَّ المعرفة التي راكمتها مدينة القسطنطينيّة على امتداد عصور. ولهذا السبب كان يرغب أن يخطّط إدموند لأكبر متاهةٍ لم يُبنَ مثيلًا لها من قبل، مكتبةٌ سرّيّة، مدينةٌ من كتبٍ مخبّأة تحت دهاليز كاتدرائيّة آيا صوفيا، حيث يتاح للكتب المحرّمة وروائع التاريخ الفكريّة أن تكون في صونٍ ومأمنٍ إلى الأبد. لم يكن الإمبراطور قسطنطين يعرض أيَّ كنزٍ مقابل ذلك. ليس سوى قارورة، قنّينة صغيرة من الزجاج المنقوش تحتوي على سائلٍ قرمزيّ يتلألأ في الظلام. ابتسم قسطنطين بطريقة غريبة عندما أعطاه إيّاها.

- انتظرتُ أعوامًا طويلةً قبل أن أجد الرجل الذي يستحقّ هذه الهبة. - فسّر الإمبراطور - لأنّها إذا وقعت في أيدٍ خاطئة قد تصبح أداةً لصنع الشرّ وإنزال البلاء.

تفحّصها إدموند مبهورًا ومفتونًا.

- هذه قطرةٌ من دماء التنّين الأخير. - غمغم الإمبراطور - سرُّ الخلود.

4

عمل إدموند دي لونا طوال أشهر على المخطّطات لبناء متاهة الكتب الكبيرة. كان ينجز الرسوم ويتلفها ولا يصل إلى ما يرضيه. استوعب حينئذٍ أنّه لم يعد يكترث للأجر، طالما أنّ خلوده نتيجةٌ حتميّةٌ لإنشاء تلك المكتبة المذهلة، لا ناجمٌ عن قارورةٍ سحريّةٍ وخرافيّةٍ مزعومة. في حين كان الإمبراطور منشغل البال رغم تحلّيه بالصبر، يذكّره بأنّ حصار العثمانيّين النهائيّ بات وشيكًا ولا وقتَ يضيّعه. وعندما توصّل إدموند دي لونا أخيرًا إلى إيجاد حلٍّ لأحجيته العظمى، كان قد فات الأوان. طوَّقت جيوش محمد الثاني الفاتح مدينة القسطنطينيّة. شارفت المدينة، والإمبراطور، على السقوط. تلقّى الإمبراطور مخطّطات إدموند بتعجُّبٍ شديد، لكنّه أدرك أنّه لن يستطيع إنشاء المتاهة تحت المدينة التي كانت تحمل اسمه. فطلب من إدموند أن يحاول الإفلات من الحصار بصحبة فنّانين ومفكّرين آخرين سينطلقون نحو إيطاليا.

- أعرف أنّك ستجد المكان المناسب لتشييد المتاهة يا صديقي.

سلَّمه الإمبراطور قارورة دم التنّين الأخير على سبيل الامتنان، وفي الأثناء انحجب وجهه بغيمةٍ من قلق.

- عندما قدّمتُ لك هذه الهبة، كنتُ أستثير حسَّ الطمع في عقلك لأغريك يا صديقي. أريد منك أن تقبل هذه التميمة المتواضعة أيضًا، لعلّها تستثير حكمة روحك يومًا مّا إذا كان ثمن الطموح باهظًا جدًّا...

نزع الإمبراطور قلادةً من عنقه وأعطاه إيّاها. لم تكن الحلية تحتوي على ذهبٍ أو جواهر، إنّما حجرةٌ صغيرة تبدو أنّها حبّة رمل بسيطة.

- الرجل الذي أعطانيها قال لي إنّها دمعة المسيح. - قال قسطنطين وقطَّب إدموند جبينه. - أعرف أنّك لست مؤمنًا يا إدموند، لكنّ الإيمان يظهر في طريقك عندما لا تكون باحثًا عنه. وسيأتي يومٌ يرغب فيه قلبك، لا عقلك، في تطهير روحك.

لم يشأ إدموند أن يخالف الإمبراطورَ فوضع تلك القلادة التافهة على عنقه. وغادر في المساء نفسه، بلا أمتعةٍ ما عدا مخطّطات المتاهة والقارورة القرمزيّة. ستسقط القسطنطينيّة والإمبراطوريّة برمّتها بعد وقتٍ قصير، إثر حصارٍ دامٍ، بينما كان إدموند يشقّ المتوسّطَ بحثًا عن المدينة التي غادرها في شبابه.

كان مسافرًا صحبة مرتزقةٍ أخذوه معهم ظنًّا أنّه تاجرٌ ثريٌّ

يسلبونه حقيبته ما إن تصبح السفينة في أعالي البحر. وعندما اكتشفوا أنّه لا ينقل أيّ ثروة، أرادوا إلقاءه في المياه، لكنّه أوهمهم بضرورة إبقائه على المتن إذ راح يقصّ عليهم بعضًا من مغامراته على طريقة شهرزاد. كانت حيلته تكمن في أن يتركهم دومًا والعسلُ على شفاههم، مثلما علَّمه أحد الرواة الحكماء في دمشق: «سيكرهونك من أجل ذلك، لكنّهم سيرغبون فيك أكثر فأكثر».

وفي أوقات الفراغ، باشر كتابة تجاربه على دفتر. أراد اجتناب نظرات القراصنة المتطفّلين، فكتب النصّ بالفارسيّة، اللغة المدهشة التي تعلّمها خلال السنوات التي أمضاها في المكتبة العتيقة. وفي منتصف الرحلة صادفوا سفينةً تترنّح على غير هدى، لا بحّارة فيها ولا مسافرين. كانت تنقل جِرارًا ضخمةً من النبيذ التي حملها القراصنة إلى سفينتهم وراحوا يسكرون منها كلَّ مساء بينما يستمعون إلى الحكايات التي يرويها إدموند، الذي لم يسمحوا له بتذّوق قطرةً واحدة من الخمر. وبعد بضعة أيّام بدأ المرض يتفشّى في السفينة وما لبث أن مات المرتزقة واحدًا تلو الآخر، ضحايا سُمٍّ كامنٍ في النبيذ المسروق الذي يجترعون.

نجا إدموند وحدَه من ذلك المصير، وشرع يُنزِل الجثث في التوابيت التي كان القراصنة يخبّئونها في العنبر غنيمةً لإحدى غزواتهم. وعندما بات هو الناجي الوحيد على متن السفينة، وخشي أن يموت في شتات البحر الواسع كواحدةٍ من أقسى

طرائق العزلة، تجرّأ وفتح القارورة القرمزيّة وتشمَّمَ محتواها قليلًا. واكتفى بلحظةٍ قصيرة ليبصر حجم الهاوية التي كانت تسعى للاستيلاء عليه. شعر بالبخار يتصاعد من القارورة إلى جلده، ورأى لوهلةٍ أنّ يديه تكتسيان بالحراشف، وأنّ أظفاره تتحوّل إلى مخالب أحدَّ وأشرسَ من أشدّ أنواع الفولاذ صلابةً وسحقًا. أمسك عندئذ بحبّة الرمل التافهة التي تتدلّى من عنقه واستغاث بالمسيح الذي لم يكن يؤمن به. تلاشت هاوية روحه السحيقة وتنفّس إدموند الصعداء وهو يرى أنّ يديه تعودان مثل يدي إنسان. أغلق القارورة ولعن سذاجته. وأدرك حينها أنّ الإمبراطور لم يكذب عليه، لكنّ أُعطيته ليست بمكافأة أو مباركة. بل إنّها مفتاح الجحيم.

5

كانت أولى خيوط الفجر تتسرّب من بين السحاب عندما أنجز سيمبيري ترجمة الدفتر. وبعد قليل، خرج المحقّق من الغرفة دون أن يقول كلمةً واحدة، ودخل حارسان لاقتياد سيمبيري إلى زنزانةٍ تيقَّنَ أنّه لن يخرج منها أبدًا إلّا ميّتًا.

وبينما كان سيمبيري يُزَجُّ في الزنزانة، كان رجال المحقّق الكبير يفتّشون بين حطام السفينة حيث سيعثرون على القارورة القرمزيّة مخبّأةً في صندوقٍ حديديّ. كان خورخي دي ليون

ينتظرهم في الكاتدرائيّة. لم يتمكّنوا من إيجاد القلادة التي تحمل دمعة المسيح المزعومة التي ألمح نصُّ إدموند إليها، لكنّ المحقّق لم يعبأ ولم يكترث، ما دام يشعر أنّ روحه لا تحتاج إلى أيّ تطهير. أخذ القارورة القرمزيّة، وعيناه تحتقنان بالجشع، ورفعها إلى المذبح لكي يباركها، واجترع المحتوى برشفةٍ واحدة وهو يوجِّه شكره إلى اللّه والجحيم على تلك الهبة. مضت بضع ثوانٍ لم يحدث في خلالها شيء. قهقه المحقّق حينذاك. تبادل الجند نظرةً حائرة، متسائلين ما إذا فقد خورخي دي ليون صوابه. وكانت تلك آخر فكرةٍ تراود أذهان معظمهم في الحياة. رأوا المحقّقَ يسقط على ركبتيه فيما استباحت ريحٌ عاتيةٌ ومتجمّدةٌ أرجاءَ الكاتدرائيّة، لتعصف بالمقاعد الخشبيّة وتهدم التماثيل وترمي الشموع المضاءة.

ثمّ أحسّوا أنّ جلده وجوارحه تتمزّق، وأنّ صوت خورخي دي ليون يغرق ما بين صيحات العذاب في خضمّ زئير الوحش الذي راح يبرز من لحمه، ليتضخّم بسرعةٍ مذهلة ويستحيل عجينةً داميةً من حراشفَ وبراثنَ وأجنحة. تبدّى ذيلٌ مدبّبٌ بالحوافّ الباترة كالفؤوس وراح يزحف كالثعبان الكبير، وعندما استدار الوحش وأظهر عليهم وجهَهُ المشقوق بالأنياب وعينيه المشتعلتين بالنار، لم يجرؤوا حتّى على الفرار. فاجأتهم ألسنة اللهب قبل أن يتحرّكوا، وسلخت لحمهم عن عظامهم مثلما تختطف الزوابعُ أوراقَ شجرة. بسط الوحش جناحيه، وانتفض المحقّق - الذي أضحى كالقدّيس جرجس والتنّين في آنٍ معًا -

وحلّقَ عبْر النافذة الورديّة المدوّرة في واجهة الكاتدرائيّة، محاطًا بإعصارٍ من شظايا الزجاج وغبار النار ليرتفع عاليًا فوق أسطح برشلونة.

6

نشر الوحشُ الرعبَ طوال سبعة أيّام وسبع ليال، ودمَّرَ المعابد والقصور، وأحرق مئات المباني ومزّق ببراثنه أناسًا مذعورين كانوا يتضرّعون الرحمةَ بعد أن اجتُثَّت أسقفُ بيوتهم من فوق رؤوسهم. وكان التنّين القرمزيّ يتضخّم يومًا بعد يوم ويلتهم ما يعترض طريقه. حتّى صارت الأجساد المقطّعة تمطر من السماء، ونيران أنفاسه تجول في الشوارع مثل رياحٍ من دماء.

وفي اليوم السابع، عندما بات جميع مَن في المدينة على قناعةٍ بأنّ الوحش سيسحقها كلّيًّا ويبيد كلَّ سكّانها، خرج إنسانٌ بمفرده لملاقاته. إدموند دي لونا، بعد أن تماثل للشفاء قليلًا وما زال يعرج، صعد السلالم المؤدّية إلى سطح الكاتدرائيّة. هناك حيث انتظر أن يلمحه الوحش وينقضّ عليه. برز التنّين من بين سُحُب الدخان والجمر السوداء، يحلِّق على ارتفاعٍ منخفض فوق أسطح برشلونة. وكان قد تضخَّم بحيث صار أكبر من المعبد الذي خرج منه.

رأى إدموند دي لونا انعكاس وجهه في تينك العينين الهائلتين كمستنقعات الدماء. فتح الوحش فكّيه لابتلاعه، وكان آنذاك يطير مثل كرةٍ مدفعيّةٍ فوق المدينة ليقتلع الشرفات والأجراس أثناء مروره. أخرج إدموند دي لونا حينها حبّة الرمل البائسة التي تتدلّى من عنقه وشدَّ عليها في قبضة يده. تذكَّر كلمات قسطنطين وقال لنفسه إنّ الإيمان عثر عليه أخيرًا وإنّ الموت ثمنٌ زهيدٌ لتطهير روح الوحش السوداء التي ليست إلّا روحَ جميع البشر. وهكذا رفع قبضته التي تشدّ على دمعة المسيح، أغمض عينيه وسلَّم نفسه للفداء. التهمه فاه التنّين بسرعةٍ تفوق البرق وطار عاليًا ليثقب الغيوم.

يقول أولئك الذين يذكرون ذلك اليوم إنّ السماء انشطرت نصفين وإنّ ضياءً باهرًا أشعَّ في القبّة السماويّة. اكتنف اللهبُ الوحشَ وتأجّج بين أنيابه بينما كان رفيف جناحيه يعرض وردةً من نار خيّمت على المدينة بأسرها. ثمّ هبط الصمت، وعندما فتحوا أعينهم كانت السماء محجوبةً كأنّها تلتحف أشدَّ الليالي ظلمةً، وها إنَّ مطرًا من فتات الرماد اللامع ينهال من الأعلى ببطءٍ شديد، ليغطّي الطرقاتِ والأنقاضَ المحترقة ومدينةَ القبور، والمعابدَ والقصور، بعباءةٍ بيضاء تتفتّت باللمس وتتضوّع بروائح النار واللعنة.

7

استطاع رايموندو دي سيمبيري الهرب من زنزانته في تلك الليلة، وعاد إلى بيته ليكتشف أنّ عائلته ومشغله قد نجوا من الكارثة. ذهب الطبّاع إلى مورايا دي مار عند الفجر. كان حطام السفينة التي جاء بها إدموند دي لونا تعوم في المدّ. وكان البحر قد بدأ يفكّك هيكلها، لكنّ سيمبيري تمكّن من دخولها كما لو أنّها بيتٌ أُزيل أحد جدرانه. جال في باطن السفينة تحت ضوء الشفق الشبحيّ، فوجد ما كان يبحث عنه أخيرًا. فعلى الرغم من أنّ النطرون أتلف جزءًا من معالمها، ما زالت رسومات متاهة الكتب الكبيرة على حالها مثلما خطّطها إدموند دي لونا. جلس الطبّاع على الرمال وفتحها. لم يستطع ذهنُهُ الإحاطةَ بكافّة تعقيدات ذلك الإيهام وحساباته، لكنّه قال في نفسه إنّ أدمغةً أذكى ستولد ذات يوم وستكون قادرةً على تفسير أسراره، وإنّه سيحتفظ بالمخطّطات حتّى ذلك الحين، حين ستجد عقولٌ أدهى الوسيلةَ لإنقاذ المتاهة وتذكُّر ثمن الوحش، سيحتفظ بالمخطّطات في صندوق العائلة، حيث لا شكّ لديه أنّها سوف تُستَخرج على يدي مشيِّد المتاهات الأنسب لخوض تحدٍّ بهذا الحجم يومًا ما.

أمير بارناسوس

نزفت الشمسُ دماءها القرمزيّة وهي تنغمس في خطّ الأفق عندما تسلّق النبيلُ أنطوني دي سيمبيري - الذي يلقِّبه الجميع «صانع الكتب» - إلى قمّة السور الذي يطوِّق المدينة، ولمح الموكبَ مُقبِلًا من البعيد. كان ذلك في العام الميلاديّ ١٦١٦ وكان الضبابُ العَثِنُ بالبارود يزحف على أسطح برشلونة المجبولة بالحجر والغبار. أشاح صانع الكتب نظره نحو المدينة وتاهت عيناه في خَيْدَعِ الأبراج والأبنية والأزقّة الخافقة في أبخرة الظلمات الأبديّة التي بالكاد تتخلّلها المشاعلُ والعرباتُ وهي تحاذي الجدران وتخدشها.

«ستسقط الأسوار يومًا ما، وسوف تتبعثر برشلونة تحت السماء مثلما تتفشّى دمعةُ الحبر على الماء المبارك».

ابتسم صانع الكتب وهو يتذكّر تلك الكلمات التي نطقها صديقه الطيّب إبّان مغادرته المدينة منذ ستّة أعوام.

«سأحمل معي ذكراها، وأنا المتيَّمُ بجمال طرقاتها والمدينُ لروحها المدلهمّة، التي أعدها بالعودة لأسلِّمها روحي وأعانقَ أشهى ما لديها من زوايا النسيان».

أيقظه من شرود خيالاته صدى القعقعة المقتربة إلى السور.
التفت صانع الكتب نحو الشرق فتراءى له الموكب وهو يدخل الطريق المؤدّية إلى بوّابة سان أنطونيو الكبيرة. كانت العربة الجنائزيّة سوداء اللون ومنقوشةً بالنوافر والأشكال المنحوتة والملتوية على مدار قُمرَةٍ زجاجيّةٍ محجوبةٍ بالستائر المخمليّة. يرافقها فارسان، وتجرّها أربعة خيول مزركشة بالأرياش وزينة الحِداد، بينما تُنهِضُ عجلاتُها غيمةً من غبارٍ يومض في كهرمان الغروب. تتبدّى هيئةُ الحوذيّ عند مقعد القيادة، ملثّمَ الوجه، ويرتفع وراءه شعارُ الملاكِ الفضّيّ بمثابة تاجٍ للعربة.
أخفض صانع الكتب نظره وتنهّدَ مهمومًا. أدرك حينذاك أنّه ليس بمفرده، لم يكن في حاجةٍ إلى الالتفات ليعي وجود الرجل بجانبه. أحسَّ بنسمة الهواء الباردة التي تميّزه وبعطر الأزهار اليابسة التي عادةً ما ترافقه.
- يقال إنّ الصديق الوفيَّ هو الذي يتمكّن من التذكُّر والنسيان في الآن نفسه. - أفصح الرجل - أرى أنّك لم تنسَ الموعد يا سيمبيري.
- ولا أنت نسيتَ الدَّيَن، يا **سنيور**[1].
اقترب الرجل حتّى تثبَّتَ وجهُهُ الناصع على بُعد شبرٍ من صانع الكتب، ورأى سيمبيري انعكاسه في المرآة الداكنة لتينك

---

(١) وردت الكلمة في النصّ الأصليّ باللغة الإيطاليّة «signore» التي تعني السيّد. (المترجم).

الحدقتين اللتين تغيِّران لونهما وتضيقان مثل أعين الذئب إذا ما شاهد دماءً طازجة. لم يَشِخِ الرجلُ يومًا واحدًا، كان يرتدي الملابس الأنيقة نفسها. شعر سيمبيري برعشةٍ ورغبةٍ عارمة في الفرار بعيدًا، لكنّه اقتصر على إيماءةٍ ودودة.

- كيف عثرتَ عليّ؟ - سأل.

- رائحة الحبر تشي بك يا سيمبيري. هل طبعتَ في الآونة الأخيرة كتابًا جيّدًا تنصحني بقراءته؟

لاحظ صانع الكتب أنّ الرجل يحمل مجلّدًا بين يديه.

- مطبعتي متواضعة لا ترقى إلى مستوى الأقلام التي تليق بذائقتك. كما يبدو لي أنّ *السنيور* لديه ما يقرأه خلال المساء.

كشف الرجل عن ابتسامته مكشِّرًا عن أسنانه البيضاء والحادّة. فنقل صانع الكتب عينيه إلى الموكب الذي صار عند أعتاب السور. أحسّ بيد الرجل تحطّ على كتفه فكَزَّ أسنانه لئلا يرتجف.

- لا تخف يا صديقي سيمبيري. ستسمع الأجيالُ القادمةُ حشرجةَ أبيانيذا وقطيعِ التعساء والحسّاد الذين طبع أعمالَهم صديقُك سيباستيان كورمياس قبل روح عزيزي أنطوني دي سيمبيري في النُّزُلِ المتواضع الذي أديره. لا شيء تخشاه منّي.

- لقد قلتَ ما يشبه قولك هذا للدون ميغيل منذ ستّة وأربعين عامًا.

- سبعةٌ وأربعون. ولم أكن أكذب.

تقاطعت نظرة صانع الكتب بنظرة الرجل النبيل سريعًا وظنَّ

لبرهةٍ وجيزةٍ كالحلم أنّه يلمح في وجهه حزنًا كبيرًا بقدْر الحزن الذي كان يجتاحه.

- خِلتُ أنّه يوم انتصارٍ بالنسبة إليك يا **سنيور** كوريلّي.

- إنّ الجمال والمعرفة هما الضوء الوحيد الذي ينير حظيرة الخنازير البائسة هذه التي أُرغِمتُ على التجوال فيها يا سيمبيري. وإنّ ضياعهما يمثّل أشدَّ عذاباتي.

كان الموكب الجنائزّي، تحت أقدامهما، يعبر باب سان أنطونيو. لوّح النبيلُ ودعا الطبّاعَ لإفساح المجال.

- تعال معي يا سيمبيري. فلنرحّبْ بصديقنا الطيّب الدون ميغيل في برشلونة التي لطالما أحبَّها حبًّا جمًّا.

وبتلك الكلمات انقاد العجوزُ سيمبيري بذهنه إلى ذكرى ذلك اليوم البعيد الذي تعرَّف فيه بمكانٍ ليس قصيًّا عن هناك، تعرَّفَ على شابٍّ يُدعى ميغيل دي ثربانتس سابيذرا، الذي سيبقى مصيره وذكراه مرتبطين به وبما لاسمه في ليل الأزمان...

برشلونة، ١٥٦٩

كانت أزمانًا أسطوريّةً ليس للحكاية فيها حيلةٌ إلّا باستذكار أحداثٍ لم تقع قطّ، ولا تستلهم الحياةُ فيها من الأحلام إلّا إذا كانت أحلامًا عابرةً وزائلة. وكان الشعراء الأغرار في تلك

العصور يعلّقون سيوفًا حديديّةً على أحزمتهم، ويمتطون صهوات الجياد بلا وعيٍ أو مصيرٍ حالمين بأبياتٍ تسيل من نصلٍ مسموم. وكانت برشلونة آنذاك مدينةً وحصنًا تغفو في حضن مَدْرَجٍ من الجبال الملغومة بقطّاع الطرق المتوارين عن الأنظار خلف بحرٍ من لون الخمر مُخصبٍ بالضوء والقراصنة. وكان اللصوص والأوباش يُشنَقون على أبوابها لترهيب الطامعين بأملاك غيرهم. وما بين أسوارها المهدّدة بالانفجار، ينصهر تجّارٌ بحكماء ورجال بِلاط ونبلاء من جميع المراتب والمناصب، في خدمة متاهة الدسائس والمال والخيمياء، المتاهة التي طبّقت شهرتُها الآفاقَ وأماني العالم المعروف والمرتجى. قيل إنّها المدينة التي أراق فيها الملوك والقدّيسون دماءهم، وإنّ الكلمات والمعرفة تجد فيها ملاذًا، وإنّ أيَّ مغامرٍ يمتلك دينارًا في اليد وأكذوبةً على الشفاه بوسعه فيها أن يعانقَ المجد، ويضاجعَ الموت ويستيقظَ مُبارَكًا بين أبراج مراقبة وكاتدرائيّاتٍ شتّى ليؤسِّسَ لنفسه لقبًا وثروة.

وفي مكانٍ كهذا ليس له وجود، سيتحتّم عليه تذكُّرَ اسمه في كلّ يومٍ من حياته، وصل في ليلة القدّيس يوحنّا شابٌّ نبيلٌ من ذوي السيف واليراع، على ظهر فرسٍ خاوي البطن تحمله أرجلُهُ بشقّ الأنفس بعد أن ظلَّ يعدو أيّامًا وأيّامًا. وكان على سرجِهِ الشريدُ آنذاك ميغيل دي ثربانتس سابيذرا، المنحدر من كلّ الأمكنة ولا مكان، ومعه فتاةٌ كما لو أنّ وجهها سُرِقَ من لوحات أحد عمالقة الرسم. وللتشبيه مسوِّغٌ وجيه، إذ عُرِفَ

لاحقًا أنّ الشابة تُدعى فرانشسكا دي بارما وقد رأت النورَ واستمدّت الكلمةَ في المدينة الخالدة قبلئذٍ بتسعة عشر عامًا.

وشاء القدر أنّ البغل الهزيل، عندما أتمَّ ركضته البطوليّة واندلق الزبدُ من فمه، انهار فاقدَ الروح على بُعد خطوات قليلة من أبواب برشلونة، وأنّ العاشقين - وفقًا لما كان عليه وضعهما السرّيّ - أشرعا في المسير على رمال الشاطئ تحت سماءٍ تنزف نجومًا، حتّى بلغا حدود السور. وإذ شاهدا أنفاسَ آلاف النيران تتصاعد نحو السماء لتصبغ الليل بالنحاس السائل، قرّرا البحث عن مضافةٍ ومأوى في ذلك المكان الشبيه بقصر الغياهب المُقام فوق مرجل البركان تحديدًا.

بعباراتٍ مماثلة، تفتقر إلى الزخرف، رُوِيَتْ فيما بعد واقعةُ وصول الدون ميغيل دي ثربانتس وعشيقته فرانشسكا إلى برشلونة، على مسمع صانع الكتب المبجَّل الدون أنطوني دي سيمبيري، صاحب المشغل والإقامة بجانب باب سانتا آنّا، على لسان شابٍّ أعرج مهين الهيئة ومهيب الأنف ومتّقد الذكاء، يُدعى سانتشو فيرمين دي لا تورّي، الذي استوعب ضرورات القادمِين، فتطوَّع ملء إرادته لإرشادهما زهاءَ قروش. وهكذا وجد الثنائيُّ سندًا ومثوى في منزلٍ كئيبٍ يلتوي على نفسه مثل جذعٍ مبروم. وصدف أنّ لمواهب سانتشو الفضلَ في تعرُّف صانع الكتب، خلسةً عن أعين القدر، على الفتى ثربانتس الذي وطّد معه صداقةً عميقة ستدوم حتّى آخر يومٍ من عمره.

تتوافر لدى الباحثين أنباءٌ شحيحة عن الظروف والأحوال ما

قبل وصول الدون ميغيل دي ثربانتس إلى مدينة برشلونة. ويشير العارفون في هذا المجال إلى أنّ الفقر المدقع والبلايا الطامّة سبقت تلك اللحظة في حياة ثربانتس وآخرين غيره، أو أنّ معركةً دامية وأحكامًا جائرة وأسرًا مذلًّا أو بترًا مفترضًا لإحدى اليدين في نزاعٍ مّا، كان له بالمرصاد قبل أن يتمكّن من التمتّع بالسكينة في آخر سني عمره وحتّى أفول حياته. وأيًّا كانت تعقيدات القدر التي أوصلته إلى هناك، على ضوء ما استطاع الدعيُّ سانتشو استخلاصه، فإنّ خطبًا جللًا وتهديدًا أشدّ وطأة ما يزالان يتعقّبان أثر الرجل.

وكان سانتشو المولعُ بالحكايات الغراميّة الساخنة والشغوفُ بالمسرحيّات المقدّسة المرتكزة على أساسٍ أخلاقيّ متين، قد توصّل في استنتاجاته إلى أنّ حبكةً من ذلك النوع لا بدّ أن تتمحور قطعًا حول وجود تلك الفتاة ذات الجمال الخارق والحُسن المثير والتي تدعى فرانشسكا. كانت بشرتُها نسمةَ نور، وصوتُها تنهيدةً ترفرف القلوب، ونظرتُها وشفتاها وعدًا بالمتعة تعجز بلاغةُ سانتشو المسكين على تبيينه، وهو الذي تتسارع خفقات قلبه وعقله كلّما سرح في إغراء حناياها المختلجة تحت ألبستها الحريريّة مخرَّمة الحوافّ. جزم سانتشو والحال هذه أنّ الشاعر الشابّ قد ارتوى من فيض ذلك السُمّ السماويّ أغلبَ الظنّ، فأضحى بعيدًا عن كلّ أشكال النجاة، فمن المستحيل أن يكون هناك رجلٌ في الدنيا لا يبيع روحه وفرسه وسلاحه مقابل أن يعيش لحظةً واحدةً من السلام في أحضان تلك الحوريّة.

- يا صديقي ثربانتس، لا ينبغي لجلفٍ مثلي أن يخبر سيادتك أنَّ وجهًا بكلّ هذا الرونق يسلب لبَّ أيّ ذكرٍ قادرٍ على التنفُّس، لكنَّ أنفي وهو أذكى عضوٍ لديَّ بعد كرشي، يدفعني إلى التفكير في أنّهم لن يسامحوك على اختطاف أنثى بهذا البهاء مهما كان مكانهم بعيدًا، وأنّه لا يوجد متّسعٌ في هذه الأرض لإخفاء عذراء من هذا العيار الشهيّ.

يجدر التنويه أنّ كلماتِ سانتشو الطيّب وسلاسةَ خطابه الفصيح قد خضعت لضرورات الإعداد الدراميّ، فأُعيِدَ تشكيلها وتهذيبها بقلم راويكم المتواضع والأمين هذا، إلّا أنّ جوهر حكمه وحكمته منقولٌ بدقّةٍ لا يشوبها التحريف.

- آهٍ يا صديقي، لو رويتُ لك ما جرى... - تنهّد ثربانتس متوجّسًا.

وروى، لأنّ خمر الرواية يسري في عروقه، ولأنّ السماء قد أرادت له أن يتقن سرد مجريات الحياة على نفسه أوّلًا لاستيعابها ومن ثَمَّ يسردها على الآخرين، فيضفي عليها رونقَ الأدبِ نورًا وأنغامًا، لأنّه كان يدرك أنّ الحياة إن لم تكن حلمًا فهي تمثيليّةٌ إيمائيّةٌ على الأقلّ، حيث يتكدّس عبثُ الحكايةِ الموجعُ خلف الكواليس دائمًا، ولأنّه لا وجود لثأرٍ بين السماء والأرض أكبر وأجدى من نحت الجمال والبراعة على وقْع الكلمات بغيةَ اكتشاف معنى الأشياء في لا معناها.

وبعد سبع أمسيات، روى الدون ميغيل دي ثربانتس قصّة وصوله إلى برشلونة هاربًا من مخاطر مروّعة، وربط أسبابها

بأصل وطبيعة تلك الفتاة المذهلة التي تُدعى فرانشسكا دي بارما. فبناءً على طلب ثربانتس، وصله سانتشو بأنطوني دي سيمبيري، نظرًا إلى أنّ الشاعر الشابّ قد ألّف عملًا دراميًّا على ما يبدو، أو ما يشبه حكايةً تجمع قصصًا عن الإغواء والشعوذة والولع الجامح، وأراد أن يراها مرسومةً على الورق.

- من الضروريّ أن أرى عملي الأوّل مطبوعًا قبل طلوع القمر التالي يا سانتشو. حياتي وحياة فرانشسكا متعلّقتان بهذا الأمر.

- كيف يمكن أن تتعلّق حياة أحدهم بمجموعة أبيات واكتمال القمر أيّها المعلِّم؟

- صدّقني يا سانتشو. إنّي أعي ما أقول.

لم يكن سانتشو في قرارة نفسه يؤمن بشعرٍ وفلكٍ لا يعدانه بطعامٍ لذيذٍ ومضاجعة سخيّة ومكثّفة مع صبيّةٍ رقيقة السلوك وسريعة الضحك، لكنّه وثق بكلام ربّ عمله وقام بالخطوات اللازمة لتحقيق اللقاء. تركا فرانشسكا الحسناء تغفو نومةَ الحوريّات في غرفتها وخرجا عند الغروب. كان لديهما موعدٌ مع سيمبيري في حانة نُزُلٍ يقع في ظلّ كاتدرائيّة الصيّادين الكبيرة، أو ما تُعرَف بكاتدرائيّة سانتا ماريّا دل مار، حيث تقاسموا خمرًا زلالًا وشطيرةً بلحم الخنزير المالح، على ضوء القناديل في إحدى الزوايا. يتكوّن الزبائن من صيّادين وقراصنة ومجرمين وأصحاب رؤى. ضحكاتٌ، مشاجراتٌ، وغيومُ دخانٍ متلبّدةٌ تحوم في عتمة النزل الذهبيّة.

- اروِ كوميدياك على الدون أنطوني. - شجَّعه سانتشو.

- هي تراجيديا في الحقيقة. - حدّد ثربانتس.

- وما الفرق؟ فليعذر المعلِّمُ جهلي الفادح في الأنماط الملحميّة الراقية!

- الكوميديا تعلِّمنا أنّه لا ينبغي أن نأخذ الحياة بجدِّيّة، والتراجيديا تعلِّمنا ما الذي يقع عندما لا نلقي بالًا لما تعلِّمنا إيّاه الكوميديا. - فسّر ثربانتس.

أومأ سانتشو من دون أن يرفّ له رمش وأنجز المهمّة بافتراس اللحم نهشًا.

- ما أعظم الشعر! - غمغم.

كان سيمبيري يستمع إلى الشاعر الشابّ، وذهنه مشتَّتٌ بسبب ندرة أعماله في تلك الأيّام. وكان ثربانتس يحمل معه رزمةً من الأوراق في مصنَّفٍ وضعه على مرأى صانع الكتب. تفحَّصها الأخيرُ بعناية، وقد استوقفته بعض التعابير والعبارات في النصّ فمرَّ عليها.

- نحن بصدد عملٍ سيستغرق أيّامًا طويلة...

أخرج ثربانتس من جعبته صرّةً وأسقطها على الطاولة. فتطايرت منها حفنةٌ من النقود. وما إن لمع المعدنُ الدنيءُ على ضوء الشمعة، حتّى سارع سانتشو إلى إخفائه وقد تولّاه الاضطرابُ.

- حبًّا باللّه يا سيّدي، لا تُبرِزْ هذه اللحوم الجليلة هنا،

فالمكان حافلٌ بالقوّادين والسفّاحين الذين قد يقطعون عنقك وأعناقنا لمجرّد أن يتنشَّقوا أريجَ هذه الدراهم.

- كلام سانتشو صحيح، يا صديقي. - أكّد سيمبيري وهو يتحرّى الزبائن.

أخفى ثربانتس نقوده وتنهّد.

صبّ له سيمبيري من الخمر كأسًا ثانية وراح يعاين أوراق الشاعر بعنايةٍ فائقة. كان العمل، بحسب مؤلّفه، حكايةً تراجيديّة تتكوّن من ثلاثة فصول ورسالة، ممهورةً بعنوان «شاعرٌ في دوائر الجحيم»، تتحدّث عن معاناة فنّانٍ فلورنسيٍّ في مقتبل العمر، تقتاده يدُ شبح دانتي ليلج هاويات جهنّم في سبيل إنقاذ روح حبيبته، سليلة نبلاء قساة وفاسدين باعوها لأمير الظلمات مقابل شهرةٍ وثروةٍ وأمجادٍ في الدنيا الفانية. يدور المشهد النهائيّ داخل الكاتدرائيّة، حيث يتعيَّن على البطل أن ينتزع جسد حبيبته الهامد من براثن ملاكٍ مشحونٍ بالنور والنار.

فكّر سانتشو أنّ كلَّ هذا يبدو قصّة حبٍّ مشؤومٍ تليق بمسرح العرائس، لكنّه لم يقل شيئًا لأنّه يعرف أنّ عشّاق الأدب في مثل هذه المواضيع سرعان ما يفورون ولا يتقبَّلون النقدَ بصدورٍ رحبة.

- حدّثني كيف وصلتَ إلى تأليف هذا العمل يا صديقي. - دعاه سيمبيري.

أومأ ثربانتس وكان عند ذلك الحدّ قد بلغ كأس الخمر

الثالثة أو الرابعة. وصار من الواضح لمن يراه أنّه يودّ تفريغ ضميره من السرّ الذي يعربد في طوايا نفسه.

- لا تخشَ شيئًا يا صديقي، سانتشو وأنا سنحفظ سرّك أيًّا كان.

رفع سانتشو كأسه وحيّا هذا التعاطف النبيل.

- قصّتي هي قصّة لعنة. - بادر ثربانتس، متردّدًا.

- مثل قصّة كلّ الشعراء المبتدئين. - قال سيمبيري - تابع!

- إنّها قصّة رجلٍ مغرم.

- تمامًا. ولكنْ لا تخف، فهذه هي القصص التي يفضِّلها الجمهور. - شدّد سيمبيري.

هزّ سانتشو رأسه مرارًا.

- الحبّ هو الحَجَرة الوحيدة التي دائمًا ما تتعثّر بالرجل ذاته. - وافقه - وانتظرْ لترى الفتاة التي نحن بصددها يا سيمبيري. - أضاف وهو يحبس جشأةً - جمالها من النوع الذي يحجِّر الأرواح.

رماه ثربانتس بنظرةٍ حادّةٍ كمقصّ الرقيب.

- المعذرة. - قال سانتشو - إنّني بسبب هذا النبيذ الرخيص أتحدّث هكذا. ومن البديهيّ أنّ عفاف السيّدة وشرفها ليسا موضع نقاش. وليُطبِقِ الربُّ السماءَ على رأسي إن أنا أضمرتُ رغبةً نجسةً حيالها في أيّ وقت.

رفع الجلساء الثلاثة أنظارهم نحو سقف الحانة برهةً، وإذ رأوا أنّ الخالق لم يكن مناوبًا وأنّ ما من كارثةٍ ستقع، ضحكوا

ورفعوا كؤوسهم ليشربوا نخب الفرصة السعيدة التي جمعتهم في ذلك اللقاء. وهكذا فعل الخمر فعله، إذ يجعل البشر صادقين عندما يكونون في أقلّ حاجةٍ إلى الصدق ويمدّهم بالشجاعة عندما ينبغي لهم البقاء جبناء، أقنع الخمرُ ثربانتس بسرد الحكاية في الحكاية، وهو ما اعتاد القتلةُ والمجانين تسميته بالحقيقة.

شاعرٌ في دوائر الجحيم

يقول المثل إنّ على المرء أن يمشي ما دامت لديه ساقان، وأن يتكلّم ما دام لديه صوت، وأن يحلم ما دام يحتفظ بالبراءة، إذ سيتحتّم عليه يومٌ لا يستطيع فيه الوقوف على قدميه، ولا يقوى على التحكُّم بأنفاسه، ولا يرغب في النوم إلّا في ليلة النسيان الأبديّة. كانت هذه الكلمات محفورةً في ذهنه، ومصحوبةً بحُكمٍ في القبض عليه جرّاء نزالٍ وقع في ظروفٍ غامضة، ناهيك بجذوة شبابه المتّقدة، حين غادر الفتى ميغيل دي ثربانتس من مدينة مدريد في العام الميلاديّ ١٥٦٩، متوجّهًا نحو المدن الإيطاليّة الغرائبيّة بحثًا عن الأعاجيب والجمال والعلم، فمدن تلك البلاد بحسب مَن عرفها كانت تتمتّع بتلك الميزات بنسبةٍ تفوق كلَّ الأماكن الموجودة على خرائط المملكة. وقد خاض هناك مغامراتٍ عديدةً وتعثّرت حظوظه فيها كثيرًا، لكنّ أكبر المغامرات كانت عندما التقى مصيره بمصير تلك الفتاة ذات الإشراقة المستحيلة والتي تدعى فرانشسكا، حيث وجد النعيمَ والجحيمَ على شفتيها وكان مصيرُهُ سيوصد في الهيام بها إلى الأبد.

لم تكن تتجاوز التسعة عشر عامًا وقد فقدت أيَّ أملٍ في الحياة. هي الابنة الأخيرة لعائلةٍ دنيئةٍ ومحرومة تعيش في بيتٍ معلّقٍ على مياه نهر التيفر في المدينة العتيقة روما. وكان إخوتها رعاعًا ونشّالين سود القلوب، يتسكّعون ويرتكبون سرقاتٍ وجرائم ضئيلة الأهمّيّة بالكاد يتمكّنون عبْرها من تأمين كسرة خبزٍ يابس. أمّا أبواها العجوزان قبل الأوان فقد أكّدا أنّهما أنجباها في خريف شقائهما، وفي الواقع ما هما سوى زوجٍ من المحتالين البائسين، عثرا على الرضيعة فرانشسكا باكيةً في حضن والدتها الحقيقيّة الذي ما زال دافئًا، وكانت تلك فتاةً بلا اسم توفّيت وهي تنجب الطفلة تحت أقواس الجسر القديم لكاستل سانت أنجلو.

تردّدَ الأفّاقان برمي الصغيرة في النهر والاستيلاء على القلادة النحاس التي تتدلّى من عنق أمّها، فإذا هما يلاحظان جمال البنت المتكامل والبديع فقرّرا الحفاظ عليها، لأنّ نعمةً من هذا النوع لا بدّ أن تعود عليهما بسعرٍ معقول في سوق العائلات الأرقى والميسورين المرتبطين بأعلى مراتب البِلاط. وكلّما مضت الأيّام، والأسابيع والشهور، ازداد طمعهما لأنّ الطفلة كانت تكشف دائمًا عن جمالٍ وألقٍ لا مثيل لهما يعزّز فكرة رفع تسعيرتها في ذهنيّة خاطفيها. وعندما أتمّت عامها العاشر، كان هناك شاعرٌ فلورنسيٌّ يمرّ بروما، فرآها تدنو إلى النهر لتملأ الجرار بالماء، ليس بعيدًا عن مكان ولادتها حيث فقدت أمَّها أيضًا. ذُهِلَ الشاعر بمفاتن ما وقعت عليه عيناه، فأهداها أبياتًا مرتجلةً في اللحظة ذاتها وسمّاها فرانشسكا، طالما أنّ العائلة التي تبنَّتها لم تعبأ بإيجاد اسمٍ لها. وهكذا ترعرعت فرانشسكا إلى أن أزهرت في هيئة امرأةٍ شذيّة العطور يقطع حضورُها المحادثات

ويوقف الزمن. وفي تلك الفترة كان الحزن العميق في عينيها هو وحدَه ما يحجب الصورة الكاملة لجمالٍ تتوه في وصفه الكلمات.

وما لبث أن تهافت الرسّامون في روما على تقديم مبالغ مغرية لأبويها ومستغلّيها بغية استخدامها كعارضةٍ لرسوماتهم. وحين رأوها تيقّنوا أنّه لو كان هناك فنّانٌ موهوبٌ وماهرٌ قادرٌ على نقل جزءٍ بسيطٍ من روعتها على اللوح أو الرخام، لصار في أعين الأجيال القادمة أعظمَ الفنّانين في التاريخ. لم تتوقّف العروض على طلب خدماتها، وغدا أهلها الشحّاذون القدامى يرفلون في النعيم كمحدثي النعمة، يتنزّهون بالعربات الكاردينالية الفارهة والشامخة، ويرتدون الحرير الملوّن ويبلسمون مساوئهم بعطورٍ تخفي العار الطافح في قلوبهم.

وعندما بلغت سنّ الرشد، خشي أبو فرانشسكا من فقدان الكنوز والثروة، فقرّر أن يزوّجها. وخلافًا لتقاليد ذلك العصر، التي توجب تقديم هبةٍ من جانب عائلة العروس، وصلت بهم الوقاحة إلى طلب مبلغٍ طائل من أجل التنازل عن يد الشابّة وجسمها لأفضل المتقدّمين. فأُقيمَ مزادٌ غير مسبوق، خرج منه ظافرًا أحدُ أمهر الفنّانين في المدينة وأشهرهم، الدون أنسيلمو جوردانو. كان جوردانو حينذاك يشارف على نهاية سنّ النضج، وقد عُوقِبَ جسمُه وروحُه بسنواتٍ من الشطط، وسُمِّمَ قلبُه بالجشع والحسد، لأنّه ورغم الإشادات والمكافآت والتكريمات التي حازتها أعماله، فإنّ حلمه المُضمَر يروم أن يتخطّى اسمُه وصيتُه العبقريَّ ليوناردو.

ومع أنّ ليوناردو قد مات قبل ذلك بخمسين عامًا، أخفق أنسيلمو جوردانو في أن يتناسى ويعفو عن ذلك اليوم من مرحلة المراهقة حيث اتّجه إلى مشغل المعلّم الكبير ليتطوّع عنده متمرّنًا. عاين

ليوناردو بعضًا من المسوَّدات التي جاء بها جوردانو، وأسمَعَهُ من رقيق الكلام بحقّه. والد الفتى أنسيلمو مصرفيٌّ معروف، وله على ليوناردو فضلٌ أو اثنان، فظنَّ الفتى أنّ مكانه في ذلك المشغل مضمون. لك أن تتخيّل كيف فوجئ بما قاله ليوناردو، بنبرةٍ تتّشح ببعض الأسف. قال إنّه يعترف بأنّ لسمته لا تخلو من الموهبة، ولكن ليس بما يكفي لجعله متفرّدًا عن مئات المتطلّعين مثله والذين لن يتخطّوا المستوى المتوسّط في حياتهم. قال له إنّ لديه طموحًا ولكن ليس بما يكفي لجعله متميّزًا عن كثيرٍ من المتمرّنين الذين لن ينجحوا أبدًا في التضحية بما هو ضروريٌّ لاستحقاق نور الإلهام الجليّ. وفي النهاية قال له إنّه قد يكتسب الحرفة، ولكن ليس بما يكفي لإقناعه بإفناء عمره في مهنةٍ لا تسدّ إلّا رمق ما ندر من العباقرة.

- أيّها الفتى أنسيلمو - قال له ليوناردو - لا تحزن من كلماتي، بل انظر ما فيها من خيرٍ لك، لأنّ منزلة والدك المبجّل ستصنع منك رجلًا ثريًّا طوال الحياة، ولن تضطرّ إلى الكدّ بالريشة أو الإزميل لتحمُّل أعباء المعيشة. ستكون رجلًا سعيدًا، ستكون رجلًا محبوبًا ومحترمًا من أبناء مدينتك، لكنّك لن تكون عبقريًّا أبدًا، حتّى لو كانت كلُّ كنوز الدنيا رهنَ يمينك. لا توجد مصائر أقسى وأَمَرُّ من مصير فنّانٍ متوسّط الكفاءة يقضي حياته في إضمار الحسد لمنافسيه ولعنهم. لا تُهدِر عمرك في سبيل مصيرٍ مشؤوم. دع الفنّ والجمال يُبدعهما آخرون لا يملكون خيارًا آخَر. ستتعلّم مع مرور الوقت أن تسامحني على صراحتي، التي تؤلمك اليوم، لكنّك إذا رضيتَ بها ملء إرادتك فستُنجيك في الغد من جحيمك نفسه.

وبقوله هذا صرف المعلّمُ ليوناردو الفتى أنسيلمو الذي تسكَّع

طوال ساعات في طرقات روما يبكي من شدّة الغلّ. وعندما عاد إلى بيت أبيه، أعلن عليه أنّه لا يودّ الدراسة عند ليوناردو، وأنّه يراه مجرّد محتالٍ يصنِّع أعمالاً رديئةً لحشدٍ من الجهلة الذين لا يُقدِّرون الفنّ الحقيقيّ.

– سأصير فنّانًا نقيًّا، لا أوجِّه أعمالي إلّا للنخبة القادرين على إدراك عمق رسالتي.

كان والده رجلًا صبورًا، ويتّسم بما يتشارك به كلُّ المصرفيّين بتفوُّقهم في معرفة الطبيعة البشريّة أكثر من أعقل الكرادلة. عانقه وأوصاه بألّا يخاف، لأنّه سيؤمّن له كلّ شيء، الدعم والمعجبين والثناء بحقّ أعماله. تعهّد المصرفيُّ قبل وفاته بأنّ هذا ما سيكون.

لم يسامح أنسيلمو جوردانو المعلِّمَ ليوناردو إطلاقًا، لأنّ الإنسان قادرٌ على أن يغفر للجميع ما عدا أولئك الذين يخبرونه بالحقيقة. وبعد خمسين عامًا، تفاقم حقده وتوقه لرؤية الأستاذ الزائف منزوعَ القدسيّة.

وحين سمع أنسيلمو جوردانو بأسطورة الشابّة فرانشسكا من أفواه الشعراء والرسّامين، أوفد خدمه محمَّلين بحقيبةٍ من النقود الذهبيّة إلى إقامة أهلها ودعاهم للقائه. تأنّق والدا الفتاة بهندامٍ يليق بقرد السيرك في حضرة دوق مانتوفا، وامتثلا أمام جوردانو في بيته آتيين بالفتاة التي لم تُنزَع عنها أسمالُها البالية. وعندما حطّت عين الفنّان عليها، شعر بغصّةٍ في فؤاده. كلُّ ما وصل إلى مسامعه صحيح، بل وأكثر من صحيح. لم يُخلَق جمالٌ كجمالها على وجه الأرض، لا قبل ولا بعد. أدرك ببصيرةٍ لا تتوقّد إلّا في وجدان الفنّانين، أنّ سحرها الباهر لا ينبع من بشرتها الصافية وجسمها المنحوت كما

ظنّ الجميع، إنّما من القوّة والإشراق الساطعين من قرارة نفسها، من عينيها الحزينتين والمفجوعتين، ومن شفتيها اللتين زمَّهما القدر.

هذا هو الانطباع الذي ولَّدته فرانشسكا دي بارما عند أنسيلمو جوردانو الذي أيقن بأنّه لن يتركها تفوته أبدًا، ولن يسمح لها بأن تكون عارضةً لدى أيّ فنّانٍ آخر، وأنّ أعجوبة الطبيعة الماثلة أمامه لن تكون لأحدٍ سواه. فهذه هي الطريقة الوحيدة التي ستمكِّنه من إبداع عملٍ يجود عليه بإعجاب الناس بما يُنسيهم أثرَ ليوناردو الخسيس الوضيع. وهي الطريقة الوحيدة التي ستتخطّى شهرتُه وسمعتُه بها أصداءَ النافق ليوناردو، بحيث لا يضطرّ إلى الحطّ من شأنه على الملأ بعدئذ، فحالما يتربّع على القمّة سيبادر بنفسه إلى تجاهل اسمه وسيعمد إلى إنكار نتاجه الفنّي كلّيًّا أو وصف أعماله بالطُّعم المُعدّ لاصطياد السفهاء والجهلاء. تقدَّمَ جوردانو في تلك اللحظة بعرضٍ يفوق أزهى أحلام البائسَين اللذين يدّعيان أبوّتهما لفرانشسكا. سيقام الزفاف في مُصلّى قصر جوردانو بعد أسبوع. لم تفتح فرانشسكا فمها بحرف خلال إبرام الصفقة.

وبعد سبعة أيّام، كان الفتى ثربانتس يجوب المدينة بحثًا عن الوحي، عندما شقّ الوفد المرافق لعربة ضخمة ومذهّبة طريقه وسط الزحام. توقّف الموكب برهةً أثناء عبوره شارع دل كورسو، فإذا هو يراها. فرانشسكا دي بارما، متّشحةً بأرقّ الأقمشة الحريريّة التي حاكها أمهر الصنّاع في فلورنسا، ترنو إليه في صمت عبْر نافذة العربة. كان حزنها عميقًا حتّى إنّه قرأه في نظرتها، وكانت قوّة تلك الروح المخطوفة المنقادة إلى حبسها أخّاذةً لدرجةٍ أحسّ فيها ثربانتس باجتياح يقينٍ دامغٍ بأنّه عثر للمرّة الأولى في حياته على مسار مصيره الحقيقيّ في وجه فتاةٍ لا يعرفها.

نظر ثربانتس إلى الموكب يبتعد، وسأل مَن تكون تلك الحسناء، فقصَّ المارّون حكاية فرانشسكا عليه. وإذ كان يصغي إليهم، تذكَّر أنّه سمع عنها الأقاويل والشائعات، لكنّه لم يصدّق منها شيئًا وقد عزاها إلى القريحة الإبداعيّة لدى المسرحيّين المحلّيّين الشبقين. ورغم هذا، كانت الأسطورة حقيقة. لقد تجلّى سموُّ الجمال في فتاةٍ بسيطة وذليلة، ومثلما هو المتوقّع: لم يمعن الناس إلّا في ترسيخ تعاستها وذلّها. أراد الفتى ثربانتس اللحاق بالموكب حتّى قصر جوردانو، ولكن تغيَّبت قواه. تردّد صخب الحفل في أذنيه ألحانًا جنائزيّة، ولم يعد يرى إلّا مأساة انهيار النقاء والكمال بفعل البغي والبؤس وجهل البشر.

توجّه إلى فندقه، معاكسًا تيّار المئات الذين أرادوا متابعة الحفل من خارج أسوار قصر الفنّان، وقد استبدّ به حزنٌ يعادل ما رآه في نظرة الفتاة التي بلا اسم. وفي المساء نفسه، وفي حين كان الأستاذ جوردانو ينزع الحرير عن جسد فرانشسكا دي بارما، ويمسّ كلّ مسام جلدها بشراهةٍ وفجور، تزعزع بيت عائلتها القديمة، المبنيّ في موقعٍ متجرّأ فوق النهر، إذ لم يعد يحتمل وزن الكنوز والبهرجان المتكدّسة على أرضيّته، فانهار في مياه النهر الباردة بجميع أعضاء العصابة الذين حُبِسوا في داخله. ومن يومها لم يرهم أحد.

وفي مكانٍ ليس ببعيدٍ عن هناك، كان ثربانتس عاجزًا عن مواءمة النعاس، ساهرًا على ضوء قنديل يواجه الحبر والورق لكتابة ما شاهده في ذلك اليوم. خذلته يداه وكلماته عندما حاول أن يصف انطباعه حين التقت نظراته بنظرات الفتاة فرانشسكا برهةً وجيزةً في شارع دل كورسو. شحّت كلُّ منابع الفنّ الذي ظنّ أنّها طيّعةٌ له، وجفّت عند رأس القلم، ولم تنهمر كلمةٌ واحدة على الصفحة. فقال في نفسه إنّه إذا

استطاع يومًا أن يخلِّد نسبةً ضئيلة من سحر تلك المرأة في أدبه، فإنّ اسمه سيرتقي إلى مصاف أعظم الشعراء وأشهرهم في التاريخ، وسيصبح ملكًا بين الرواة، أميرًا على جبل بارناسوس الذي سوف يضيء نورُه فردوسَ الآداب المفقود، وأنّه في أثناء ذلك سيمحو من على وجه الأرض الصيتَ المقيتَ للمسرحيّ اللئيم لوبي دي بيغا، الذي لا تتوقّف الحظوظ والأمجاد عن محالفته والذي كان يجني نجاحاتٍ لا سابق لها منذ مطلع شبابه، بينما كان هو يخفق في تدوين بيتٍ واحدٍ لا يجلب العار للأوراق التي دُوِّن عليها. وبعد ذلك بدقيقة، اعترف بظلاميّة أحقاده، وشعر بالخزي من الغرور والحسد الباطلين اللذين ينهشان روحه، وقال لنفسه إنّه ليس بأفضل من العجوز جوردانو، الذي كان في تلك اللحظات يلعق العسل المحرَّم بشفتيه كالدجّال ويستكشف الأسرارَ المغتصبة بقوّة المال، بيديه المرتجفتين والمتّسختين بالعار.

عَقِلَ أنّ اللّه الجبّار قد أبقى جمالَ فرانشسكا دي بارما في أيدي البشر ليذكّرهم بقبح أرواحهم، وسفالة أعمالهم ونجاسة شهواتهم.

ومضت الأيّام دون أن يبارح ذلك اللقاءُ الوجيزُ ذاكرته. كان ثربانتس يحاول العمل إلى طاولته لجمع مشاهد مسرحيّته التي من شأنها إرضاء الجمهور وإنعاش مخيّلته كتلك التي كان يؤلّفها لوبي من دون بذل جهودٍ ملحوظة، إلّا أنّ ذهنه لم يكن قادرًا على استحضار شيء عدا الضياع الذي نقشته صورةُ فرانشسكا في قلبه. فعوضًا عن المسرحيّة التي عزم على كتابتها، كان قلمه يولّد صفحةً في إثر صفحة ما يشبه روايةً مشوّشة يسعى من خلال عباراتها إلى إعادة بناء قصّة ضياع تلك الفتاة. فصارت فرانشسكا في حكايته بلا ذاكرة، كأنّها

صفحةٌ بيضاء، وارتكزت شخصيّته على مصيرٍ لا يمكن لأحدٍ غيره ابتكاره، بمثابة وعدٍ بالنقاء سيعيد إليها إرادة الإيمان بشيءٍ طاهرٍ وبريءٍ في عالمٍ يقوم على الخديعة والكذب والوضاعة والألم. كان يقضي الليالي في أرقٍ ويجلد مخيّلته ويطلق العنان لعبقريّته، ورغم هذا كان يطلع عليه الفجر فيراجع صفحاته ويسلّمها للنار تحرقها، لأنّه يعلم أنّها لا تستحقّ مقاسمة ضوء النهار مع المرأة التي ألهمتها في حين أنّها تتعرّض للهلاك البطيء في السجن الذي أُعِدَّ لها داخل أسوار قصر جوردانو الذي لم يره في حياته، ومع ذلك أضمر له كلَّ ما أوتي من حقدٍ وضغينة.

أمست الأيّام أسابيعَ والأسابيعُ أشهرًا، وسرعان ما مضت نصف سنة عن زواج أنسيلمو جوردانو بفرانشسكا دي بارما دون أن يراهما أحدٌ في روما كلّها. وقد عُرِفَ أنّ خيرة الباعة في المدينة يسلّمون المؤونة عند أبواب القصر، ويستقبلهم تومّازو حاجبُ الأستاذ. وقد عُرِفَ أنّ مشغل أنطونيو مركانتي يمدّه بالألواح وعدّة الرسم أسبوعيًّا. ولكن، لم يؤكّد أحدٌ أنّه رأى الفنّان أو زوجته الشابّة شخصيًّا. وبعد مرور ستّة أشهر على العرس بالتمام، دخل ثربانتس إلى مكتب منتجٍ مسرحيٍّ شهير يدير عدّة صالات كبيرة في المدينة، وكان دائم البحث عن كُتّابٍ جددٍ موهوبين جائعين مستعدّين للعمل مقابل صدقة. حصل ثربانتس بفضل وساطة بعض الزملاء على فرصة اللقاء بالدون ليونيلّو، النبيل غريب الأطوار ذي النفس المتضخّمة والملابس المفخّمة. كانت على سطح مكتبه تشكيلةٌ من القوارير الزجاجيّة التي يزعم أنّها تحوي إفرازاتٍ حميميّةً مستخلصةً من أجساد أجمل الغانيات في ريعان شبابهنّ. وكان يضع وسامًا صغيرًا على شكل

ملاك عند ثنيّة سترته. أبقاه ليونيلّو واقفًا على قدميه بينما كان يتصفّح المسرحيّة بعجالة، متصنِّعًا الملل وعدم الاهتمام.

- «شاعرٌ في دوائر الجحيم» - غمغم المنتج - فكرةٌ مطروقة. كثيرون قصّوا هذه الحكاية قبلك، وأفضل منك. ما أبحث عنه هو... فلنقل، تجديد. شجاعة. رؤية.

كان ثربانتس يعلم بحُكم خبرته أنّ أولئك الذين يدَّعون بحثهم عن تلك الفضائل السامية في الفنّ هم أنفسهم العاجزون عن تمييزها بطبيعة الحال، لكنّه يعلم أيضًا أنّ معدةً خاوية وجيبًا فارغًا يسلبان البرهان والبلاغة حتّى من أكبر المكرة. إن كان حدسه يخبره بشيء فهو أنّ ليونيلّو المتظاهر بملامح ثعلبٍ عجوز كان يشعر عمومًا بالضيق من طبيعة المادّة التي جاءه بها ثربانتس.

- المعذرة إن أضعتُ وقت سيادتك...

- ليس بهذه السرعة. - قاطعه ليونيلّو - قلتُ إنّ الفكرة مطروقة، لكنّها ليست... فلنقل، قمامة. حضرتك موهوب، ولكن تعوزك الصنعة. كما أنّك تفتقد الـ... فلنقل، الذائقة. ولا تمتلك حسّ انتهاز الفرص.

- أشكرك على كرمك.

- وأنا أشكرك على سخريتك يا ثربانتس. فأنتم الإسبان تعانون من إفراطٍ في الكبرياء ومن خللٍ في العزيمة. لا تستسلم بهذه السهولة. تعلَّم من مواطنك لوبي دي بيغا. عبقريٌّ وفذّ، على قولكم.

- سأضع ذلك في الحسبان. هل ترى سيادتك إمكانيّةً لقبول عملي إذاً؟

انفجر ليونيلّو ضاحكًا.

- هل الخنازير تطير؟ لا أحد يودّ مشاهدة مسرحيّاتٍ... فلنقل،

محبطة وتؤكّد أنّ قلوب البشر فاسدة وأنّ الجحيم ما هو إلّا نحن والآخرون يا ثربانتس. الناس يقصدون إلى المسارح لكي يضحكوا، لكي يبكوا، ولكي نذكّرهم بأنّهم في مكانةٍ مرموقةٍ من الطيبة والنبل. وأنت لم تفقد سذاجتك بعد، وتعتقد أنّك تمتلك الحقيقة التي... فلنقل، يجب أن تُروى. ستُشفى مع مرور الوقت يا ثربانتس، أو هذا ما أرجوه على الأقلّ، إذ لا يسرّني أن أراك متلظّيًا في محرقة أو متفسّخًا في زنزانة.

– هذا يعني أنّك تعتقد أنّ عملي لا يهمّ أحدًا...

– لم أقل هذا. فلنقل إنّني أعرف أحدًا قد يكون مهتمًّا.

أحسّ ثربانتس بقلبه يخفق بشدّة.

– آهٍ كم الجوعُ متوقَّع. – تنهّد ليونيلّو.

– الجوع، خلافًا للإسبان، يفيض عزيمةً وليس لديه كبرياء. – بادر ثربانتس.

– أترى؟ لديك صنعة. تجيد صياغة قولٍ مأثور، وتقديم ردٍّ يمتاز بـ... فلنقل، ببنيةٍ دراميّة. وهذه أمورٌ يتقنها حتّى الأغرار، ولكن ما أكثر الأجلاف المحترفين الذين لا يعرفون كتابة قفلة مشهد...

– هلّا ساعدتني يا سيّد ليونيلّو؟ بوسعي أن أفعل كلّ شيء وأن أتعلّم بسرعة.

– ليس لديّ شكٌّ في هذا...

كان ليونيلّو يرمقه حائرًا.

– أيّ شيء سيادتك. أرجوك...

– هناك شيءٌ قد يثير اهتمامك. ولكن لا يخلو من الـ... فلنقل، المخاطر.

– المخاطر لا تخيفني. لا أكثر من الشقاء، على الأقلّ.

– في هذه الحالة، أعرف رجلًا نبيلًا أبرمتُ معه... فلنقل، اتّفاقًا. كلّما صادفتُ في طريقي شابًّا واعدًا يمتاز بالكفاءة... فلنقل، مثلك أنت، أرسلتُه إليه. وهو مدينٌ لي... فلنقل، على طريقته.

– كلّي آذانٌ مصغية.

– وهذا ما يقلقني... شاءت الظروف أنّ النبيل الذي نحن بصدده... فلنقل، يمرّ بالمدينة.

– وهل هذا النبيل منتجٌ مسرحيٌّ مثل سيادتك؟

– فلنقل إنّه من هذا القبيل. ناشر.

– أفضل كثيرًا...

– هذا رأيك. للرجل مكاتبُ في باريس وروما ولندن وهو دائم البحث عن موهبة فذّة ومتفرّدة. فلنقل مثل موهبتك.

– أشكرك شكرًا جزيلًا على...

– لا تشكرني. اذهب للقائه وقل له إنّك أتيتَ من طرفي. واستعجل في ذلك. يبدو لي أنّه لن يبقى في المدينة أكثر من بضعة أيّام.

دوّن ليونيلّو اسمًا على بطاقة صغيرة وأعطاها له.

أندرياس كوريلّي **منشورات النور**

– ستجده في نزل بورغيزي، عند الغروب.

– أتظنّ أنّ عملي سيثير اهتمامه؟

ابتسم ليونيلّو ابتسامةً ملغّزة.

– حظًّا سعيدًا يا ثربانتس.

وعندما هبط المساء، ارتدى ثربانتس لباسه الاحتياطيّ الوحيد والنظيف، واتّجه نحو نزل بورغيزي، المطوّق بالحدائق والقنوات، على مقربة من قصر أنسيلمو جوردانو. فوجئ بخادمٍ حارسٍ عند أعتاب السلالم يخبره بأنّ أندرياس كوريلّي في انتظاره وسيستقبله بعد قليل في إحدى الصالات. تصوّر ثربانتس أنّ ليونيلّو كان طيّبًا أكثر مما يتخيّله ولا بدّ أنّه بعث رسالة توصية بذلك الخصوص إلى صديقه الناشر. رافقه الخادمُ إلى مكتبةٍ واسعة وبيضويّة الشكل غارقةٍ في العتمة وتنعم بدفء موقدةٍ تعرض انعكاسًا مذهّبًا وهائلًا يتراقص على الجدران الكثيرة والمكتظّة بالكتب. ثمّة أريكتان كبيرتان قبالة الموقدة، جلس ثربانتس على إحداهما بعد تردّدٍ قصير. وكانت رقصة النار تبعث على النعاس، وقد اعترته لفحاتها الدافئة. مضت دقيقتان قبل أن يشعر أنّه لم يكن بمفرده. هناك طيفٌ طويل القامة ومكتنز البنية يشغل الأريكة الثانية. يرتدي لباسًا أسود ويزدان على صدره وسام الملاك الفضّيّ المطابق للذي لمحه ثربانتس على ثنيّة ليونيلّو في تلك الظهيرة. وكانت اليدان هما أوّلَ ما لفت انتباه ثربانتس، لم يشهد مثل ضخامتهما من قبل، ناصعتان ومسلّحتان بأصابع طويلة ورفيعة. ثمّ عيناه. مرآتان ينعكس فيهما اللهيب ووجه ثربانتس نفسه، لا يرفّ لهما جفن أبدًا ويبدو أنّهما تغيّران أبعاد الحدقتين من دون أن تتحرّك أيُّ عضلةٍ في وجهه ولو قليلًا.

– يقول لي ليونيلّو الطيّب إنّك ذو موهبةٍ كبيرة وحظٍّ عاثر.

ابتلع ثربانتس ريقه.

– لا يقلقنّك مظهري، سيّد ثربانتس. فالمظاهر ليست خدّاعة دائمًا، لكنّها مبهرةٌ دائمًا أو تكاد.

أومأ ثربانتس صامتًا. ابتسم كوريلّي وما زال مزموم الشفتين.

– أتيتني بمسرحيّة. أم أنا أخطئ؟

مدّ ثربانتس المخطوطة إليه ورأى أنّ كوريلّي كان يبتسم في سرّه وهو يقرأ العنوان.

– هذه الصيغة الأوليّة. – ارتجل ثربانتس.

– لا أكثر. – قال كوريلّي وهو يقلّب الصفحات.

لاحظ ثربانتس أنّ الناشر يقرأ بهدوء، يبتسم بين الفينة والفينة أو يقوّس حاجبه بفعل مفاجأة. وها إنَّ كأسًا وقنّينةَ نبيذ فائق اللون تتجسّدان على طاولة صغيرة بين الأريكتين.

– تفضّل، يا ثربانتس. ليس بالحروف وحدَها يحيا الإنسان.

صبَّ ثربانتس النبيذ في الكأس وحملها إلى شفتيه. فاض فمه بنكهةٍ حلوةٍ ملؤها نشوة. أنهى الكأس بثلاث رشفات وأحسَّ برغبةٍ لا تقاوم في الاستزادة.

– بلا استحياء، يا صديقي. كأسٌ بلا خمر إهانةٌ بحقّ الحياة.

وما لبث أن ضيّع ثربانتس حساب عدد الكؤوس التي أفرغها. فاستبدّ به نعاسٌ لذيذٌ ومُطَمئِن، وتراءى له ما بين جفنيه المطبقين أنّ كوريلّي ما يزال يقرأ المخطوطة. تناهت إليه أجراس منتصف الليل من البعيد. وبعد قليل، أُسدِلَ ستارُ نومٍ عميق وولّى ثربانتس أمره للصمت.

عندما فتح عينيه ثانيةً، كان طيف كوريلّي يتبدّى أمام الموقدة. الناشر واقفًا على قدميه قبالة ألسنة اللهب، موليًا إليه ظهره، وممسكًا بالمخطوطة بيده. شعر بميلٍ طفيف نحو الغثيان، وأحسّ بحموضة النبيذ في حلقه، وتساءل كم مرّ من الوقت.

– يومًا ما ستكتب رائعةً أدبيّة يا ثربانتس. – قال كوريلّي – لكنّ هذه ليست كذلك.

وبلا تريُّثٍ، ألقى الناشرُ المخطوطةَ في النار. انقضّ ثربانتس نحو اللهب، لكنّ أجيج الحريق أوقفه. راح ينظر إلى ثمرة جهده تأكلها النار لا محالة، وخطوط الحبر تصبغ السعيرَ بلون الزرقة، وخيوط الدخان الأبيض تجوب الصفحات مثل أفاعٍ خُلِقَت من بارود. أثقله اليأسُ فسقط على ركبتيه وعندما التفت إلى الناشر رآه ينظر نحوه متعاطفًا.

– يتعيَّن على الكاتب أحيانًا أن يحرق ألف صفحة قبل أن يكتب واحدةً تستحقّ أن تحمل توقيعه. أنت ما تزال في البدايات. رائعتك تنتظرك عند أعتاب سنّ النضج.

– ليس لك الحقّ في أن تضرم النار بها...

ابتسم كوريلّي ومدّ له يدًا لمساعدته على النهوض. تردّد ثربانتس، ثمّ استعان بها في النهاية.

– أريدك أن تكتب شيئًا لي، يا صديقي. بلا عجلة. حتّى لو استغرق الأمر منك أعوامًا، وهذا ما سيكون. أكثر ممّا تظنّ. أريد عملًا مماثلًا لطموحاتك وأمنياتك.

– ما أدراك بأمنياتي؟

– شأنك شأن كلّ الشعراء الملهَمين يا ثربانتس. إنّك مثل كتابٍ مفتوح. لذا، ولأنّ *شاعرك الذي في دوائر الجحيم* يبدو لي لعبة أطفال بسيطة، حصبة ستمضي بالتأكيد، أريد أن أقدّم لك عرضًا نهائيًّا. عرضٌ لكتابة عملٍ من مستواك، ومستواي.

– لقد أحرقتَ ما استطعتُ كتابته طوال أشهر من العمل الدؤوب.

- وقد أسديتُ إليك معروفًا بهذا. قل لي الآن، وكن صريحًا، إن كنتَ لا تعتقد حقًّا بأنّني على صواب.

استغرق بعض الوقت، لكنّه أومأ بنعم في النهاية.

- وقل لي إن كنتُ خاطئًا حينما أكدّتُ أنّ في قلبك أمنيةً بتأليف عملٍ يكسف أثر منافسيك، ويمحو اسم لوبي وبراعته الخصبة...

أراد ثربانتس أن يعترض، لكنّ الكلمات لم تصل إلى شفتيه. ابتسم له كوريلّي مجدّدًا.

- لا ينبغي لك أن تخجل من هذا. ولا تفكّر أنّ تلك الأمنية تجعلك شبيهًا بجوردانو...

رفع ثربانتس نظره مرتبكًا.

- طبعًا أعرف قصّة جوردانو وربّة إلهامه... - ردّ كوريلّي مستبقًا السؤال - أعرفها لأنّني أعرف الرسّام العجوز قبل سنوات طويلة من ولادتك.

- أنسيلمو جوردانو إنسانٌ بائس.

ضحك كوريلّي.

- كلّا، ليس كذلك. إنّه إنسانٌ ببساطة.

- إنسانٌ يستحقّ أن يدفع ثمن جرائمه.

- أتظنّ ذلك؟ لا تقل لي إنّك ستخوض نزالًا معه أيضًا.

شحب وجه ثربانتس. كيف عرف الناشر أنّه غادر مدينة مدريد منذ شهور هاربًا من حُكمٍ بالقبض عليه بسبب نزالٍ شارك فيه؟

اقتصر كوريلّي على ابتسامةٍ ماكرة وسدّد إليه إصبع اتّهام.

- وما التهم التي توجّهها إلى الملعون جوردانو، ما عدا ميوله إلى رسم مشاهد رعويّةٍ تزخر بالماعز والعذارى والرعاة تحوز إعجاب

التجّار والأساقفة، وقدّيساتٍ منتفخات الجذع تسرّ أعين المؤمنين أثناء الصلاة؟

– لقد استولى على تلك الفتاة المسكينة وأبقاها سجينةً في قصره لإشباع طمعه وجبنه. لإخفاء انعدام موهبته. لمحو عاره.

– يا للرجال كيف يتعجّلون في الحكم على أشباههم إزاء أفعالٍ لن يتورّعوا عن ارتكابها إذا ما سنحت لهم الفرصة...

– ما كنتُ لأقْدِم على ما فعله.

– هل أنت واثق؟

– حتمًا.

– هل تجرؤ على وضع نفسك على المحكّ؟

– لم أفهم...

– قل لي يا سيّد ثربانتس. ما الذي تعرفه عن فرانشسكا دي بارما؟ لا تسلّيني بقصيدة الصبيّة الموصومة بالعار وطفولتها الدامية. فلقد أثبتَّ لي أنّك ضليعٌ بأساسيّات المسرح...

– ما أعرفه هو... أنّها لا تستحقّ أن تعيش في سجن.

– أهذا عائدٌ إلى جمالها؟ هل جمالها يرفع من قدرها؟

– بل عائدٌ إلى نقائها. إلى طيبتها. إلى براءتها.

مرّر كوريلّي لسانه على شفتيه.

– ما زال أمامك متّسعٌ من الوقت لاعتزال الأدب والانغماس في أسرار القسوسة، يا صديقي ثربانتس. ستتقاضى أجورًا أعلى، وستحصل على سكن، ووجبات ساخنة ووفيرة بالطبع. ينبغي للمرء أن يتملّك كثيرًا من الإيمان ليصبح شاعرًا. أكثر ممّا لديك أنت.

– معاليك تستهزأ بالجميع.

– بك فقط يا ثربانتس.

نهض ثربانتس ولوّح بالتوجّه نحو الباب.

– سأترك معاليك بمفردك لكي يتسنّى لك الاستهزاء كما تشاء.

كاد ثربانتس يصل إلى باب الغرفة، عندما انصفق في وجهه بقوّةٍ أردته على الأرض. وكاد ينهض فإذا هو يكتشف أنّ كوريلّي ينحني نحوه، بقامته المهيبة التي تقارب المترين طولاً فبدا كأنّه سيرتمي عليه ليسحقه سحقًا.

– انهض. – أمره.

أطاعه ثربانتس. بدت عينا الناشر قد تغيّرتا. حدقتان نجلاوان سوداوان تتّسعان على امتداد نظرته. لم يشعر بالخوف بقدر ما شعره به حينها. خطا إلى الوراء فارتطم ظهره بحائطٍ من الكتب.

– سأعطيك فرصة يا ثربانتس. فرصة الوصول إلى ذاتك والكفّ عن التصعلك في الشوارع التي تفضي بك إلى حياةٍ هي ليست حياتك. ومثل كلّ الفرص، سيكون القرار النهائيّ قرارك. هل قبلتَ عرضي؟

رفع ثربانتس كتفيه.

– إليك عرضي: ستؤلّف تحفةً أدبيّة، لكنّك من أجل ذلك ستفقد أغلى ما يهواه قلبك. سيُحتفى بعملك أيّما احتفاء، وسيحسدونك عليها وسيقلّدونها لقرونٍ وقرون، لكنّ الفراغ الذي سيسكن قلبك سيكون أكبر بألف مرّة من مجد براعتك وكبرياء اسمك، لأنّك في تلك اللحظة فقط ستدرك طبيعة مشاعرك الحقيقيّة، وفي تلك اللحظة فقط ستعرف أنّك أفضل من جوردانو، كما تدّعي، ومن كلّ أولئك الذين سجدوا مثله قبالة وجوههم المنعكسة إبّان قبول هذا التحدّي... فهل تقبل؟

حاول ثربانتس إشاحة نظره عن عيني كوريلّي.

- لا أسمعك.

- أقبل. - سمعه يقول.

مدّ كوريلّي يده حينذاك وصافحه ثربانتس. تشابكت أصابع الناشر بأصابعه مثل عنكبوت وأحسّ بأنفاس كوريلّي الباردة تنفح وجهه وكأنّها بنكهة الأرض الرخوة والأزهار الميّتة.

- كلَّ يوم أحد، عند منتصف الليل، يفتح تومّازو حاجبُ جوردانو البابَ الصغيرَ المؤدّي إلى الزقاق المتواري في الحرش الشرقيّ من القصر، ويخرج للحصول على قارورة خلطة المنشّطات التي يحضِّرها المعالج أفيانّو من أجله ويضيف إليها البهار وماء الورد، ويُخيَّل إلى جوردانو أنّه بفضل تلك الخلطة يستعيد جذوة شبابه. وليلة الأحد هي الوحيدة في الأسبوع التي يتغيّب فيها خدم جوردانو وحرسه، ولا تتجدّد المناوبة إلّا قبيل الفجر. وخلال نصف الساعة التي يخرج فيها الحاجب، يبقى الباب مفتوحًا ولا أحد يحرس القصر...

- وما الذي تنتظره منّي؟ - تلعثم ثربانتس.

- السؤال هو ما الذي تنتظره حضرتك من نفسك يا سيّدي. أهذه هي الحياة التي تريد أن تعيشها؟ أهذا هو الرجل الذي تريد أن تكون عليه؟

كانت ألسنة اللهب تخفق وتنطفئ، فتنبسط الظلالُ على امتداد جدران المكتبة مثل بقع الحبر المسكوب لتغطّي كوريلّي. وعندما أراد ثربانتس أن يجيب بات بمفرده.

وفي منتصف ليلة الأحد تلك، كان ثربانتس يترقّب متخفّيًا بين الأشجار المحاذية لقصر جوردانو. ولم تتمّ الأجراس الرنين حين

انفتح بابٌ جانبيٌّ صغير، مثلما تكهَّن كوريلّي تمامًا، وخرج طيفٌ محدودب الظهر هو الحاجب العجوز، وسار إلى أسفل الدرب. انتظر ثربانتس أن يبتلع الليلُ ظِلَّ الحاجبِ، وتسلّل إلى الباب. وضع يده على المقبض وشدَّ عليه. وفُتِحَ الباب مثلما تنبّأ كوريلّي. ألقى ثربانتس نظرةً أخيرة إلى الخارج، ودخل حين أيقن أنّ أحدًا لم يلمحه. وما إن أغلق الباب خلف ظهره اكتشف أنّه محاطٌ بظلمةٍ دامسة، فلعن حسّه السليم لأنّه لم يأتِ بشمعة أو قنديل يسترشد به. تلمّسَ الجدران، رطبة ولزجة مثل أمعاء حيوان، وتقدّم على غير هدى حتّى اعتلى العتبة الأولى ممّا بدا سلَّمًا حلزونيًّا. صعد ببطء فإذا بنفحة ضياء طفيفة تكشف عن قوسٍ حجريّ يفضي إلى ممرّ واسع. كانت الأرضيّة مرصوفةً ببِلاطٍ رخاميٍّ أبيض وأسود، يشبه رقعة الشطرنج. تحرّك ثربانتس نحو داخل القصر، مثلما يتقدّم بيدقٌ بنقلةٍ خفيّة. ولم يكد يقطع الممرّ بأكمله حتّى بدأ يلاحظ أنّ اللوحات والأطر كانت أسفل الجدران، مرميّةً على الأرض مثل حطام سفينة ومبعثرةً في القصر كلّه. مرّ أمام عتبات غرفٍ وصالاتٍ حيث كانت رسومات الوجوه مكدّسة على الأرفف والطاولات والكراسي. هناك سلّمٌ رخاميٌّ يصعد إلى الطوابق العليا، ويفيض باللوحات الممزّقة وبعضٍ من آثار الغضب الذي دفع صاحبها إلى تحطيمها. وعندما بلغ البهو المركزيّ، ألفى ثربانتس نفسه عند حدود حزمة كبيرة من ضوءٍ قمريّ بخاريّ يتسرّب من القبّة التي تتوّج القصر، حيث يحوم الحمام ويرسل أصداء رفيف أجنحته إلى الممرّات والغرف المنكوبة. جلس القرفصاء عند لوحة وعرف فيها وجهًا غير مكتمل، مثل بقيّة اللوحات، هو وجه فرانشسكا دي بارما.

نظر ثربانتس حوله فوجد مئاتٍ مثلها، كلّها ممزّقة، كلّها ملقاة.

وأدرك عندئذ سبب غياب الفنّان جوردانو عن الأنظار. كان الرسّام القدير يبذل جهودًا يائسة لاستعادة الوحي الذي ضاع منه وهو يطارد إشراقة فرانشسكا دي بارما، حتّى فقد رشده كلّما أمسك الريشة. وقد خلّف جنونه خطًّا من اللوحات غير المنجزة مبعثرةً في أرجاء القصر كأنّها جلد أفعى.

– كنت أنتظرك منذ زمن. – قال الصوت من خلفه.

التفت ثربانتس. عجوزٌ هزيل، أشعث الشعر الطويل، متّسخ الثياب وأرمد العينين المحمرّتين، يراقبه مبتسمًا من إحدى زوايا الصالة. كان قاعدًا على الأرض، ليس لديه جليسٌ سوى الكأس وزجاجة النبيذ. استحال القدير جوردانو، أشهرُ الفنّانين في عصره، استحال إلى متسوّل مجنون في قصره نفسه.

– جئتَ لتخطفها، أليس كذلك؟ – سأله. لم يتمكّن ثربانتس من الردّ. سكب الرسّام العجوز كأسًا من النبيذ ورفعها على سبيل الاحتفاء – لقد عمّر والدي هذا القصر من أجلي، هل كنتَ تعرف؟ كان يقول إنّه سيحميني من العالم. ولكنْ، مَن يحمينا مِن أنفسنا؟

– أين فرانشسكا؟ – سأله ثربانتس.

أطال الرسّام النظر إليه، وهو يتذوّق النبيذ بابتسامةٍ متهكّمة.

– هل تعتقد حقًّا أنّك ستظفر حيث أخفق الجميع؟

– لا أبحث عن الظفر أيّها المعلّم. وما سعيي إلّا لتحرير فتاةٍ لا تستحقّ العيش في مكانٍ كهذا.

– نبلٌ جليل، نبلُ مَن يكذب حتّى على نفسه. – أفصح جوردانو.

– لم آتِ إلى هنا لكي أجادلك أيّها المعلّم. إن لم تخبرني بمكانها بحثتُ عنها بنفسي.

أنهى جوردانو كأسه وأومأ.

- لن أعترض طريقك أيّها الفتى.

رفع جوردانو عينيه نحو السلّم الصاعد ما بين الضباب إلى القبّة. تحرّى ثربانتس في الظلمة فرآها. فرانشسكا دي بارما، تسطع كالرؤيا في قلب الدجى، وتهبط ببطء، عاريةً وحافية. سارع ثربانتس إلى نزع عباءته وغطّاها، وأحاطها بذراعيه. حطّ الحزن الهائل في نظرة الفتاة عليه.

- اخرج من هذا المكان الملعون يا سيّدي ما دام الوقت يحالفك.

- غمغمت.

- لن أخرج إلّا معكِ.

صفّق جوردانو من زاويته.

- يا له من مشهدٍ عظيم. العشّاق في منتصف الليل عند أعتاب السماء.

نظرت فرانشسكا إلى الرسّام العجوز، الرجل الذي أبقاها حبيسةً نصفَ عام، ولم تضمر له الحقد بل الشفقة. ابتسم جوردانو ابتسامةً رقيقة، مثل مراهقٍ متيّم.

- اعذريني يا حبيبتي لأنّي لستُ ما تستحقّين.

أراد ثربانتس إبعاد الفتاة عن هناك، لكنّ نظراتها ما تزال أسيرةً لدى سجّانها، الذي بدا أنّه في الرمق الأخير. ملأ جوردانو الكأس نبيذًا مرّة أخرى وناولها إيّاها.

- رشفة وداعٍ أخيرة، يا حبيبتي.

أفلتت فرانشسكا من ذراع ثربانتس، واقتربت إلى جوردانو وجلست القرفصاء بجانبه. مدّت يدها وداعبت وجهه المغضّن

بالتجاعيد. أغمض الفنّان جفنيه وتاه في لمساتها. وقبل أن ترحل، أخذت منه الكأس وشربت ما فيها من نبيذ. شربت ببطء، بعينين مغمضتين، وكانت تمسك الكأس بكلتا اليدين. ثمّ تركتها تسقط فانفجر الزجاج بألف شظيّة عند قدميها. مسك ثربانتس يدها وسلّمت أمرها له. ودون أن يوجّه نظرةً أخيرة إلى الرسّام، مضى ثربانتس إلى باب القصر الرئيس والفتاةُ بين ذراعيه. وعندما أصبح في الخارج، وجد الخدم والحرّاس في انتظاره. لم يُقدِم أحدٌ على إيقافه. بل إنّ أحد الحرّاس المسلّحين كان يمسك برسن حصان أسود، وأعطاه إيّاه. تردّد ثربانتس في قبول الحصان، لكنّه عندما فعل، أفسح الحرّاس له المجال ونظروا إليه صامتين. امتطى الحصان وأركَبَ فرانشسكا. وحينما كان يعدو متّجهًا نحو الشمال اندلعت النيران من قبّة قصر جوردانو وسطعت السماء بالحمرة والرماد. كانا يعدوان خلال النهار، ويمضيان الليل في الفنادق والأنزال، وذلك أنّ ثربانتس عثر في خراج الحصان على نقودٍ سمحت لهما بالاحتماء من البرد والشكوك.

وبعد مرور يومين على أقلّ تقدير، لاحظ ثربانتس رائحةً بنكهة اللوز على شفتي فرانشسكا، وهالاتٍ سوداء بدأت تتشكّل حول عينيها. وفي كلّ ليلة، عندما كانت الفتاة تسلّمه جسدها العاري طواعيةً، كان ثربانتس يعي أنّ ذلك الجسد يتبخّر بين يديه، وأنّ الكأس المسمومة التي أراد بها جوردانو أن يحرّرها ويحرّر نفسه من اللعنة كانت تشتعل في عروقها وتستنزفها. توقّفا خلال رحلتهما في أفضل الفنادق، حيث عاينها أطبّاءٌ وحكماء دون أن يتمكّنوا من اكتشاف علّتها. وكانت فرانشسكا تنطفئ أثناء النهار، بالكاد تستطيع الكلام أو إبقاء عينيها مفتوحتين، وتُبعَثُ في الليل، في ظلمات السرير، لتسحر حواسّ

الشاعر وترشد يديه. وفي نهاية الأسبوع الثاني من الرحلة، وجدها تمشي تحت المطر قبالة البحيرة الممتدّة بجانب الفندق الذي نزلا فيه لقضاء الليل. كانت الأمطار تنساب على جسمها، في حين تبسط ذراعيها وترفع رأسها إلى أعلى كأنّما ترجو السماءَ أن تمدّ القطراتِ اللؤلؤيّةَ التي تغطّي جسمها بالقدرة على انتزاع روحها الملعونة.

– عليك أن تتركني هنا. – قالت له – انسني وواصل رحلتك.

لكنّ ثربانتس، إذ رأى انطفاء نور الفتاة يومًا في إثر يوم، وعدها للمرّة الثانية أنّه لن يفارقها أبدًا، وأنّه ما دام فيها نَفَسٌ حيّ سيناضل لتبقى حيّة. ولتبقى له.

وعندما اجتازا جبال البرانس باتّجاه شبه الجزيرة الإيبيريّة، بموازاة ساحل المتوسّط، وسلكا الطريق نحو مدينة برشلونة، كان في رصيد ثربانتس مئة صفحة من مخطوطةٍ كتبها في كلّ الليالي وهو يراقب فرانشسكا النائمة مثل أسيرةٍ في براثن كابوس. كان يشعر أنّ كلماته، والصور والعطور الفوّاحة من كتاباته، هي الوسيلة الوحيدة لإبقائها على قيد الحياة. وفي كلّ مساء، عندما كانت فرانشسكا تهيم بين ذراعيه ثمّ تنقاد إلى النوم، كان ثربانتس يحاول أن يعيد كتابة روحها عبْر تخيُّلاتٍ كثيرة بشكلٍ محموم. وبعد أيّام، حين خرَّ حصانه ميتًا قرب أسوار برشلونة، أنجز المسرحيّة التي كان يعمل عليها، وبدت فرانشسكا تستردّ قواها ولون نظرتها. كان قد راوده حلمُ يقظة وهو على ظهر الحصان، أنّه سيجد في تلك المدينة البحريّة ملاذًا وأملًا، وصديقًا طيّبًا يساعده في البحث عن طبّاعٍ يعمل على مخطوطته، وأنّه حالما ستقرأ الناسُ حكايته وتتوه في كون الصور والأبيات الذي أبدعه، ستندمج فرانشسكا التي كوّنها بالحبر والورق،

ستندمج بالفتاة التي تحتضر كلَّ ليلةٍ بين ذراعيه، وستصبحان كيانًا واحدًا، وسيعود هو إلى عالمٍ تُغلَب فيه اللعنةُ والشقاءُ بقوّة الكلمات، وأنّ اللّه أينما كان سيسمح له بالعيش معها يومًا إضافيًّا على الأقلّ.

(مقتطف من «وقائع سرّيّة في مدينة الملاعين»
تأليف إغناثيوس ب. سامسون، منشورات
بارّيدو وإسكوبياس، برشلونة ١٩٢٤)

برشلونة، ١٥٦٩

دفنوا فرانشسكا دي بارما بعد يومين تحت سماءٍ مضاءة تنزلق على البحر الهادئ وتمدّ السفن الراسية عند رصيف المرفأ بالنور. رحلت الفتاة خلال الليل وهي في أحضان ثربانتس، في الغرفة التي نزلا بها في الطابق الأعلى من بنايةٍ قديمة في شارع أنتشا. كان الطبّاع أنطوني دي سيمبيري وسانتشو معه في اللحظة التي فتحت فيها عينيها للمرّة الأخيرة، وابتسمت لثربانتس وغمغمت: «حرِّرني».

في تلك الظهيرة، أنجز سيمبيري طباعة منشورٍ من النسخة الثانية لـ «شاعر في دوائر الجحيم»، وهي روايةٌ من ثلاثة فصول للدون ميغيل دي ثربانتس سابيذرا، وقد حمل معه نسخةً ليريها للمؤلّف الذي لم يتملّك القوّة حتّى لقراءة اسمه على الغلاف.

وإذ كانت لعائلة الطبّاع قطعة أرض صغيرة قرب باب سانتا

مادرونا القديم، بجوار شارع ترنتا كلاوس، اقترح عليه أن تُدفَن الفتاة في تلك المقبرة المتواضعة، التي كانت عائلة سيمبيري في أعتى عهود التفتيش قد أنقذت فيها كتبًا من الحرق، وذلك بإخفائها في القبور إذ أهالوا عليها التراب بمثابة مقبرةٍ للكتب. فاض قلب ثربانتس بالامتنان ووافق.

وفي اليوم التالي، وبعد أن أحرق «شاعر في دوائر الجحيم» للمرّة الثانية والأخيرة، على رمال الشاطئ، حيث سيهزم الفارسُ سانسون كارّاسكو النبيلَ العبقريَّ ألونسو كيخانو يومًا ما، غادر ثربانتس المدينة وانطلق وفي روحه - هذه المرّة بالتأكيد - ذكرى فرانشسكا ونورُها.

برشلونة، ١٦١٠

لا بدّ أن أربعة عقود انقضت قبل عودة ميغيل دي ثربانتس إلى المدينة التي دفن فيها براءته. وقد اتّسمت حكاية أيّامه بمعالم الكثير من المغامرات الطائشة والإخفاقات والمواجع. إذ إنّ عسلَ التقدير، بأسوأ تجليّاته بؤسًا وشحًّا، لم يبتسم في وجهه إلّا في سنوات نضجه المتقدّمة. وبينما كان مُعاصِرُهُ المحبوبُ، المسرحيُّ المغامرُ لوبي دي بيغا، قد صنع لنفسه شهرةً وثروةً ومجدًا منذ أيّام شبابه، لم يُتوَّج ثربانتس بأكاليل الغار إلّا في وقتٍ متأخّر، لأنّ الإشادةَ قيِّمةٌ عندما تأتي في اللحظة المناسبة

فقط. أمّا إذا كانت كزهرةٍ ذابلة ومتأخّرة فهي ليست سوى إهانةٍ وتحقير.

وفي حوالي العام ١٦١٠ صار باستطاعة ثربانتس أخيرًا أن يحسَب نفسه أديبًا شهيرًا، على الرغم من ثروته المتواضعة، طالما أنّ المعدن الرخيص قد فاته خلال حياته كلّها ولم يعد يبدو مستعدًّا لتغيير رأيه في نهاية عمره. فلنضع سخرية القدر جانبًا، يقول الباحثون إنّ ثربانتس كان سعيدًا أثناء تلك الأشهر الثلاثة التي أمضاها في برشلونة في العام ١٦١٠، علمًا بأنّ هناك مَن يشكّ في أنّه لم يطأ المدينة يومًا، وهناك مَن قد يمزّق ثيابه إزاء التلميح إلى أنّ كلّ الأحداث المذكورة في هذه الرواية المتواضعة والملفّقة لم تقع على أرض الواقع في أيّ زمانٍ ومكان باستثناء المخيّلة المنحطّة لكاتبٍ رديءٍ متحجّر القلب.

ومع هذا، وإذا أردنا تقديم ائتمانٍ للأسطورة وقبول عملة الخيال والحلم، يمكننا أن نجزم بأنّ ثربانتس في تلك الأيّام كان يشغل غرفةً صغيرة قبالة أسوار المرفأ، نوافذها الكبيرة مفتوحة على ضوء المتوسّط، وليست ببعيدة عن الغرفة التي لفظت فيها فرانشسكا دي بارما أنفاسها الأخيرة بين ذراعيه. كما أنّه كان يجلس هناك كلّ يوم لتأليف أحد أعماله التي ستضمن له ذيوعَ الصيت، لا سيّما خارج حدود المملكة التي شهدت ولادته. كانت الشقّة التي أقام فيها من أملاك صديقه القديم سانتشو، الذي غدا تاجرًا متنعّمًا على رأس ذُريّةٍ من ستّة أولاد،

وظلّ متّسمًا بطبعٍ بشوشٍ على الرغم من مخالطته كلَّ أنواع المجون في العالم.

- وما الذي تكتبه الآن أيّها المعلِّم؟ - كان سانتشو يسأله في كلّ يوم عندما يراه خارجًا - ما زالت زوجتي تنتظر مغامرات جديدة عن البسالة لصاحبنا العزيز ذي الحربة النبيل دي لا مانتشا...

وكان ثربانتس يقتصر على ابتسامة ولا يجيب عن السؤال. وكان أحيانًا، عند الغروب، يذهب إلى المطبعة التي ما زال العجوز أنطوني دي سيمبيري وابنه يديرانها في شارع سانتا آنّا بجانب الكنيسة. يحبّ ثربانتس قضاء الوقت بين الكتب والصفحات التي ستُجمَع في متنٍ واحد، ومحادثة صديقه الطبّاع الذي يتجنّب الكلام عن الذكرى التي ما تزال حيّةً في ذاكرة كليهما.

وذات مساء، عندما حانت ساعة إغلاق المشغل حتّى اليوم التالي، أرسل سيمبيري ابنَه إلى البيت وأغلق الباب. كان الطبّاع يبدو قلقًا فأدرك ثربانتس أنّ شيئًا ما يطنّ في رأس صديقه الودود منذ أيّام.

- أوّلَ أمس جاء رجلٌ نبيلٌ يسأل عنك. - بادر سيمبيري - أبيض الشعر، طويل القامة، وعيناه...

- ... كأعين الذئاب. - أكمل ثربانتس.

أومأ سيمبيري.

- هكذا تمامًا. قال لي إنّه صديقٌ قديمٌ لك وإنّه يودّ أن

يراك إذا ما عرَّجتَ على المدينة. . . لا أعرف ما السبب: حالما مضى في سبيله اجتاحتني كآبةٌ كبرى وبتُّ أفكّر أنّه قد يكون هو الرجلَ الذي حدّثتَنا أنا وسانتشو الطيّبَ عنه ذات ليلةٍ بعيدة في إحدى الحانات المجاورة لكاتدرائيّة سانتا ماريّا دل مار. جديرٌ بالذكر أنّه كان يضع وسامًا صغيرًا على شكل ملاك عند ثنيّة سترته.

- خلتُ أنّك نسيتَ تلك القصّة يا سيمبيري.

- أنا لا أنسى ما أطبعه.

- آمل أنّه لم يخطر في بالك الاحتفاظ بنسخة منها.

توجّه إليه سيمبيري بابتسامةٍ واهنة. فتنهّد ثربانتس.

- ما الذي عرضه عليك كوريلّي مقابل النسخة؟

- ما يكفي لأخليَ الميدان وأتنازلَ عن المطبعة لأبناء سيباستيان دي كورمياس من باب الإحسان.

- وهل بعتَها له؟

واستجابةً لذلك السؤال استدار سيمبيري واقترب من إحدى زوايا المشغل، حيث جلس القرفصاء ورفع بلاطة، أخرج من تحتها غرضًا ملفوفًا بقماشة، ووضعه على الطاولة أمام ثربانتس.

نظر الروائيّ إلى الغرض برهةً، وبعد أن نال موافقة سيمبيري فكّ القماشة ليكشف عن النسخة الوحيدة المتبقّية من «شاعر في دوائر الجحيم».

- هل لي أن آخذها؟

- إنّها لك. - أجاب سيمبيري - أنت صاحب الحقوق بدفعٍ مسجَّلٍ للطبعة.

فتح ثربانتس الكتاب وجال نظره على الأسطر الأولى.

- الشاعر هو المخلوق الوحيد الذي يستعيد البصر بعد مضيّ العمر. - قال.

- هل ستلاقيه؟

ابتسم ثربانتس.

- وهل لديّ خيارٌ آخر؟

بعد يومين، خرج ثربانتس كعادته في كلّ صباح للقيام بجولة طويلة في المدينة، على الرغم من أنّ سانتشو حذّره من أنّ العاصفة تهدّد البحر وفقًا لما نقله الصيّادون. بدأت الأمطار تنهمر بغزارة عند منتصف النهار وانحجبت السماء بغيومٍ سوداء تختلج على لمعان البروق ودويّ الرعود، التي بدت كأنّها تضرب الأسوار وتتوعّد بسحق المدينة. دخل ثربانتس إلى الكاتدرائيّة ليحتمي بها من الإعصار. كان المعبد مقفرًا، جلس الروائيُّ على أحد مقاعد المصلّى الجانبيّ الغارق في دفءٍ حميمٍ تولّده مئاتُ الشموع المضطرمة في الظلمة. لم يتفاجأ عندما وجد أندرياس كوريلّي جالسًا بجواره يحدِّق إلى المسيح المعلّق فوق المذبح.

- لا تمرّ السنوات على سيادتك. - قال ثربانتس.

- ولا على عبقريّتك يا صديقي العزيز.

- مع أنّها قد تمرّ على ذاكرتي، لأنّي أعتقد أنّني نسيتُ اللحظة التي بتنا معاليك وأنا فيها صديقين. . .

رفع كوريلّي كتفيه.

- انظر إليه، ها هو ذاك، مصلوبٌ لافتداء خطايا البشر، ولا يُضمِر ضغينة، في حين أنّك لستَ أهلًا للصفح عن هذا الشيطان المسكين. . . - نظر ثربانتس إليه بصرامة. - لا تقل لي الآن إنّك تستاء من التجديف. - أضاف كوريلّي.

- التجديف لا يسيء إلّا لمَن يتلفّظ به لإهانة الآخرين.

- ليس في نيّتي إهانتك يا صديقي ثربانتس.

- وما نيّتك إذاً يا سنيور كوريلّي؟

- أن أطلب منك الغفران.

هبط صمتٌ طويل بينهما.

- الغفران لا يُطلَب بالكلمات.

- أعرف. ولستُ أعرض عليك كلمات.

- لا تمتعض إذا خفتت حماستي كلّما سمعتُ كلمة «عرض».

- وعلامَ أمتعض؟

- لعلّ سيادتك قد جننتَ بعد أن أسرفتَ في قراءة كتب الأدعية حتّى إنّك صدّقتَ أنّ رحمتكم تنزل في وادي الظلمات هذا لإصلاح الباطل الذي فعله مخلِّصُنا المائلُ هناك بحقّنا جميعًا عندما ترك السفينة في مهبّ الريح.

رشم كوريلّي الصليب وابتسم ليبرز أسنانه الكلبيّة الحادّة.

- آمين. - أفصَحَ.

نهض ثربانتس وانحنى احترامًا وتهيّأ للخروج.

- لا يُمَلُّ من صحبتك يا رئيس الملائكة الموقّر، لكنّني في الظروف الحاليّة أفضّل صحبة الرعود والصواعق، لعلّي أنعم بالتفرُّج على العاصفة بسلام.

تنهّد كوريلّي.

- اسمع عرضي أوّلًا.

سار ثربانتس نحو المخرج ببطء، فيما كان باب الكاتدرائيّة ينغلق بوجهه شيئًا فشيئًا.

- كأنّي رأيتُ هذا المشهد من قبل.

كان كوريلّي له بالمرصاد عند العتبة، متواريًا في الظلمة. لا يُرى منه سوى عينيه المتّقدتين بانعكاس الشموع.

- لقد فقدتَ أشدَّ ما يحبّه قلبك أو ظننتَ أنّك تحبّه ذات مرّة، مقابل تمكُّنك من إبداع رائعةٍ أدبيّة.

- لم يكن الخيار لي على الإطلاق. لقد كذبتَ.

- بل إنّ الخيار كان رهن يديك على الدوام يا صديقي. وأنت تعلم ذلك.

- افتح الباب.

- الباب مفتوح. بوسعك الخروج متى أردت.

أطال ثربانتس يده نحو البوّابة ودفعها. فانقضّت الريح والأمطار على وجهه. توقّف لحظةً قبل الخروج، وكان صوت كوريلّي يهمس في أذنه من قلب الظلام.

- لقد افتقدتُك يا ثربانتس. عرضي بسيط: استعِد القلم الذي هجرتَه وافتح الصفحات التي ما كان ينبغي لك إهمالها. ابعث الحياةَ في عملك الخالد وأنجِزْ مغامرات الدون كيخوته ومرافقه الأمين لإرواء ظمأ هذا القارئ المسكين الذي تركتَهُ يتيمًا من العبقريّة والإبداع.

- الحكايةُ انتهت، الفارسُ النبيلُ دي لا مانتشا دُفِن، وصوتي تبدّد.

- افعلها من أجلي وسأعيد إليك مَن أَحَبَّهُ قلبُك.

حدّق ثربانتس من عند باب الكاتدرائيّة إلى الإعصار الشبحيّ الذي كان يمتطي المدينة.

- هل تعدني بذلك؟

- أقسم لك. بحضرة أبي وإلهي.

- ما الحيلة هذه المرّة؟

- لا وجود لأيّ حيلة هذه المرّة. هذه المرّة، مقابل إبداعك الجميل، سأعطيك أشدَّ ما ترغب فيه.

وهكذا، من دون أن يضيف شيئًا، انطلق الروائيُّ العجوز تحت الإعصار صوب مصيره.

برشلونة، ١٦١٦

في ذلك المساء الأخير تحت نجوم برشلونة، رافق العجوزُ سيمبيري وأندرياس كوريلّي الموكبَ الجنائزيَّ عبْر طرقات

المدينة الضيّقة باتّجاه المدفن المخصّص لعائلة سيمبيري، حيث اجتمع ثلاثة أصدقاء قبل أعوامٍ عديدة مُثقَلين بسرٍّ لا يُفشى وأهالوا التراب على جثمان فرانشسكا دي بارما. كانت العربة تتقدّم مغمَّدةً بالصمت على ضوء المشاعل، والناس يتنحّون جانبًا. جابوا بَكَرَةَ الأزقّة والساحات المؤدّية إلى المدفن الصغير المغلق ببوّابةٍ من حرابٍ مسنّنة. توقّفت العربة حين وصلت إلى أبواب المقبرة. ترجّل الفارسان اللذان يرافقانها، وساعدهما الحوذيّ بإنزال التابوت الذي لا تشوبه عبارةٌ أو علامة. فتح سيمبيري أبواب المقبرة وأفسح لهم المجال للدخول. حملوا النعش حتّى القبر المفتوح الذي كان ينتظر تحت ضوء القمر، ووضعوه على الأرض. وبإيعازٍ من كوريلّي، انسحب التَّبَعُ إلى أبواب المدفن، ليتركوا سيمبيري في رفقة الناشر. سُمِعَتْ حينذاك خطواتٌ بجانب البوّابة، وإذ استدار سيمبيري أدرك أنّ سانتشو العجوز جاء لتوديع صديقه. أومأ كوريلّي إلى الحرس فأتاحوا له العبور. وعندما صار الثلاثة أمام التابوت، انخفض سانتشو وقبّل الغطاء.

- أودّ أن أدلي بكلمة. - غمغم.

- تفضّل. - قال كوريلّي.

- فليتقبّلِ اللّهُ في مجده الهائل هذا الرجلَ العظيم والصديقَ الأعظم. ونظرًا إلى الوضع الراهن، إذا فوَّضَ اللّهُ المهامَ بناءً على هرميّةٍ ذات مراتبَ مشكوك في أمرها، فليكن شرفُ أصدقائه وتقديرُهم هما اللذين يرافقانه في رحلته الأخيرة هذه

نحو الفردوس، وألّا تتوه روحه الخالدة في دروب اللهب والكبريت بسبب مكر ملاكٍ معزول، ما دامت السماء تعلم أنّني والحال هذه لا أجد بُدًّا في إعداد الجواد والعتاد والذهاب لإنقاذه، مهما وضعت لي شرورُ خازن الجحيم من مكائد وتهديدات في طريقي.

كان كوريلّي ينظر إليه بجمود. لكنّ سانتشو لم يحد نظره عنه رغم أنّه كاد يموت خوفًا.

- أهذا كلّ شيء؟ - سأله كوريلّي.

أومأ سانتشو، وهو يشدّ قبضتيه لإخفاء ارتجافه. رفع سيمبيري عينيه نحو كوريلّي متسائلًا. دنا الناشر من التابوت، وفتحه رغم استغراب الجميع وارتيابهم.

كان جثمان ثربانتس راقدًا في الداخل بلباسٍ فرنشسكانيٍّ ووجهٍ مكشوف. عيناه مفتوحتان، ويده على صدره. رفع كوريلّي يد ثربانتس وأودع تحتها الكتابَ الذي كان معه.

- يا صديقي، سأعيد إليك هذه الصفحات، الجزء الثالث العظيم والنهائيّ من أسمى الحكايات التي كتبتَها لهذا القارئ المتواضع، الذي يعرف أنّ البشر لن يستحقّوا جمالًا بهذا القدر. لذا سأدفنه معك، لكي تحمله لمن انتظره طوال كلّ هذه السنوات، والذي كنتَ تتوق دومًا للرجوع إليه سواء أأدركتَ ذلك أم لا. وبهذا يُتَمُّ شوقُك الأكبر، ومصيرك وثوابك النهائيّ.

أغلق كوريلّي الغطاء بعد تلك الكلمات.

- ترقد هنا فرانشسكا دي بارما، الروح النقيّة، وميغيل دي

ثربانتس، نبراسٌ بين الشعراء، صعلوكٌ بين البشر، وأميرُ جبل بارناسوس. فليرقدا بسلامٍ بين الكتب والكلمات دون أن تُقلَقَ راحتُهما الأبديّة، وليبقيا في منأى عن بقيّة البشر. فليكن هذا المكان سرًّا، لغزًا لا يعرف أحدٌ أصلَه ونهايتَه. وليحيَ هنا روح أعظم ساردٍ للحكايات سكن هذا العالمَ.

وبعد أعوام، في فراش الموت، كان العجوز سيمبيري سيروي كيف أنّه في تلك اللحظة أيقن أنّه رأى أندرياس كوريلّي يذرف دمعةً تحوّلت إلى حَجَرةٍ ما إن لمست قبر ثربانتس. عرف حينذاك أنّه على تلك الصخرة سيباشر بناء مقبرةٍ للأفكار والإبداعات، والكلمات والأعاجيب، وأنّ المقبرة ستنشأ على رفاة أمير بارناسوس، وأنّها ستحتضن فيها أكبرَ مكتبة يومًا ما، تلك التي سيلوذ فيها كلُّ عملٍ ملاحَقٍ أو محتَقَرٍ من قِبَلِ الجهل أو شرور البشر، وسيبقى ريثما يلتقي بالقارئ الذي يحتوي عليه كلُّ كتابٍ في داخله.

قال وهو يودِّعه:

- مرحبًا بك في مقبرة الكتب المنسيّة يا صديقي ثربانتس.

هذه مجرّد حكاية ترفيهيّة تلعب على بعض النقاط الأقلّ شهرةً وتوثيقًا في حياة الكاتب العظيم، لا سيّما رحلته إلى إيطاليا في شبابه، وإقامته (خلال فترات متباعدة) في مدينة برشلونة، الوحيدة التي يشير إليها مرارًا في عمله.

وخلافًا لمعاصره المقدَّر لوبي دي بيغا، الذي نال شهرةً كبيرة منذ سنواته الأولى، كان قلم ثربانتس متأخّرًا وحظي باعترافات وإشادات ضئيلة. وكانت الأعوام الأخيرة من حياة ميغيل دي ثربانتس سابيذرا هي الأخصب خلال مسيرته الأدبيّة المضطربة. وبعد إصدار الجزء الأوّل من «الدون كيخوته دي لا مانتشا» عام ١٦٠٥، ولعلّها الرائعة الأشهر في تاريخ الأدب ورائدة الرواية الحديثة، دخل الكاتب في مرحلة هدوء نسبيّ تخلّلها الاعتراف بقيمته ما سمح له بإصدار «روايات نموذجيّة» عام ١٦١٣، وفي العام اللاحق «رحلة إلى جبل بارناسوس».

وفي عام ١٦١٥ يصدر الجزء الثاني من «الدون كيخوته». سيتوفّى ثربانتس في العام التالي في مدريد وسيُدفَن في دير الثالوثيّات الحافيات، أو هذا ما عُرِفَ طوال سنوات على الأقلّ.

لا يوجد إثباتٌ على أنّ ثربانتس ألّف جزءًا ثالثًا من رائعته العظمى.

ولا يُعرَفُ يقينًا أين ترقد رفاته حقًّا إلى يومنا هذا.

برشلونة، حوالي العام ١٦٠٠



أسطورةٌ من أجواء الميلاد

مرَّ زمانٌ كانت فيه طرقات برشلونة تُدبَغُ بضوءٍ غازيٍّ وقتَ غروب الشمس، وتصحو فيه المدينةُ عند الفجر محاطةً بأحراشٍ من المداخن التي تسمِّم السماء باللون الأحمر القاني. كانت برشلونة حينذاك تشبه الجرفَ الشاهقَ المحفور بالكاتدرائيّات والقصور المتشابكة في متاهةٍ من الأزقّة والأنفاق الرازحة تحت ضبابٍ مؤبَّدٍ يرتقي من خلاله برجٌ له أبعادُ كنيسةٍ كبرى، وقمّةٌ مخروطيّةٌ قوطيّة، ومنحوتاتٌ نافرة ونوافذُ الوردة المدوَّرة. وفي الطابق الأعلى، يقيم أثرى رجلٍ في المدينة، المحامي إڤيلي إسكروتكس.

كان طيفه يبرز للعيان في كلّ ليلة، متشكِّلًا خلف ألواح العليّة المذهّبة، يتمعّن المدينة تحت قدميه كالحارس المتجهّم. وقد أسّس إسكروتكس ثروةً هائلة في مقتبل شبابه عندما كان يترافع عن مصالح القتلة ذوي الكفوف البيضاء، والمصرفيّين العائدين من الأمريكيّتين وصناعيّين من حضارة البخار الجديدة والأنوال. قيل إنّ العوائل المئة الأوسع نفوذًا وجبروتًا في

برشلونة دفعوا له مبلغًا سنويًّا طائلًا للتعويل على نصائحه، وإنّ عديدًا من رجالات الدولة والجنرالات المتطلّعين ليصبحوا أباطرةً ذهبوا إليه أفواجًا واستقبلهم في مكتبه في أعلى البرج. قيل إنّه لم يكن ينام البتّة، بل يمضي الليل ساهرًا يراقب برشلونة من النافذة، وإنّه لم يعد يخرج من البرج منذ وفاة زوجته قبل ثلاثة وثلاثين عامًا. قيل إنّ روحه مطعونةٌ بشعور الفقد وإنّه يكره كلّ شيء ويحقد على الجميع، وإنّه لا يستهدي إلّا برغبته في رؤية الأرض بائدةً في بخلها وبؤسها.

لم يكن لدى إسكروتكس أصدقاء ولا خلّان. كان يعيش في قمّة البرج ولا صحبة له سوى صحبة كانديلا، الخادمة العمياء التي تصرّ الألسنةُ الحاقدةُ على أنّها شبه مشعوذة، تجوب طرقات المدينة العتيقة لإغواء أطفالٍ بريئين وفقراء لا يراهم أحدٌ بعدئذ. وكان الولع الوحيد الذي عُرِفَ عن المحامي، ناهيك بالخادمة وفنونها السرّيّة، هو لعبة الشطرنج. إذ كان يدعو في كلّ عشيّة ميلاد مواطنًا برشلونيًّا للانضمام إليه في عليّة البرج. يقدِّم له عشاءً فاخرًا، ويسقيه نبيذًا ولا في الأحلام. وفي منتصف الليل تمامًا، عندما يصدر رنينُ الأجراس من الكاتدرائيّة، يقدِّم إسكروتكس كأسين من الأفسنتين، ويتحدّى ضيفَه بمباراة شطرنج. في حال فاز الطَّموحُ، يتعهّد المحامي بأن يتنازل له عن كلّ ثروته وأملاكه. ولكن في حال الخسارة، يتعيَّن على الضيف أن يوقِّع عقدًا يخوِّل للمحامي أن يصبح المالك والوصيّ الوحيد على روحه المخلَّدة. كان ذلك يحدث كلَّ عشيّة ميلاد.

وكانت كانديلا تجوب أحياء برشلونة بعربة المحامي السوداء بحثًا عن لاعب. شحّاذون أو مصرفيّون، قتلة أو شعراء، لا يهمّ. المباراة ستمتدّ حتّى فجر يوم الميلاد. وحين تنهض الشمس الدامية على أسطح الحيّ القوطيّ التي تراكمت فوقها الثلوج، يدرك الخصم أنّه خسر التحدّي لا محالة. فيخرج عندئذ إلى الطرقات الباردة متدثّرًا بما كان يرتديه من قبل، بينما يأخذ المحامي قارورةً من زجاجٍ زمرديّ اللون ويدوّن عليها اسم الخاسر لإضافتها إلى خزانةٍ زجاجيّة تحتوي على عشرات القوارير المتطابقة.

يُحكى أنّ المحامي إسكروتكس، في ليلة الميلاد تلك، الأخيرة في حياته الطويلة، أوفد كانديلا ذات العينين البيضاوين والشفتين السوداوين لتجوب شوارع برشلونة كالعادة بحثًا عن ضحيّةٍ جديدة. وكانت العاصفة الثلجيّة تدهم برشلونة، وتربض على شرفاتها وأفاريزها المكسوّة بالجليد. رفرفت أسراب الخفافيش بين أبراج الكاتدرائيّة، وكان القمر ينسكب على الأزقّة كالنحاس الذائب. توقّفت الخيول السوداء التي تجرّ العربة فجأةً عند مدخل شارع أوبيسبو، وأنفاسُها المذعورةُ تنفح الصقيعَ. برز شخصٌ من الضباب، منصهرًا في بياض الثلج ومتقنِّعًا بخمار العروس الطويل، حاملًا بيده باقة ورودٍ حمراء. انتشت كانديلا من عطر الورود فدعت الشخصَ إلى ركوب العربة. أرادت أن تلمس وجهه، لكنّها لم تجد إلّا الصقيع وشفتين مبلّلتين بعصارة المرارة. اقتادته إلى البرج، الذي كان

في تلك الآونة يرتفع على أنقاض مقبرة قديمة بجوار شارع أفنيون.

يُحكى أنّ المحامي إسكروتكس انعقد لسانه عندما رآها وأمر كانديلا بالانصراف. تحرّرت الضيفة من خمارها في عشيّة الميلاد الأخيرة، فخُيِّلَ إلى المحامي ذي الروح الحكيمة والنظرة التي غبّشها الحزن أنّه يرى وجه عروسه الفقيدة. كانت تشعّ بنصاعة الخزف وحمرة القرمز. سألها إسكروتكس عن اسمها فاقتصرت على الابتسام. دوّت أجراس منتصف الليل بعد قليل، وبدأت المباراة. قيل لاحقًا إنّ المحامي قد أُجِهَدَ شرَّ إجهاد، فرضخ للهزيمة، وإنّ كانديلا التي جُنَّت بالغيرة قد عمدت إلى إضرام النار التي أحرقت البرجَ وأبلجتِ الفجرَ من قلب الليل في سماوات برشلونة الأرجوانيّة. تجمّع بعض الأولاد حول ميقاد النار في ساحة سان خايمي وأقسموا أنّهم رأوا المحامي إسكروتكس قُبَيْلَ اندلاع نوافذ البرج يتّجه نحو السياج المكلَّل بالملائكة والمرمر، ويفتح القوارير الزمرديّة في مهبّ الريح، ليحرِّر أرياش البخار التي استحالت دموعًا تتلاشى على شرفات برشلونة قاطبةً. تشابكت ثعابين النار على قمّة البرج، ورأى بعضُهم طيفَ المحامي إسكروتكس للمرّة الأخيرة يقفز في الفراغ معانقًا عروسَ النار. صار جسداهما رمادًا متفتّتًا كنسته الريح بعيدًا قبل أن يتمزّقا على الأرض. وسقط البرج فجرًا، مثل هيكلِ ظِلٍّ ينثني على نفسه.

تختتم الأسطورة أنّه بعد أيّام قليلة من الانهيار، تآمر

الصمت والنسيان وامّحى اسمُ المحامي إسكروتكس من وقائع المدينة إلى الأبد. ويؤكّد الشعراء والأشخاصُ أنقياءُ الروح أنّه بالإمكان رؤية الطيف الشبحيّ للبرج المحترق في سماء منتصف الليل، إذا رُفِعَت الأبصارُ عاليًا في عشيّة الميلاد، وبالإمكان رؤية المحامي إسكروتكس وقد أعماه الدمع والندم، يحرِّر أوّل قارورةٍ زمرديّة في مجموعته، تلك التي تحمل اسمه. ولا يغيب مَن يؤكّد أنّ كثيرًا من الناس في ذلك الفجر الملعون تجوّلوا عند أنقاض البرج لعلَّهم يحصلون على قطعةٍ متفحِّمة، وأنّ بقايا عربة كانديلا ما انفكّت تتسكّع بين ظلال المدينة الملعونة، في دامس الظلمات، بحثًا عن المرشَّح التالي.



أليثيا، عند الفجر

لم يعد البيتُ الذي رأيتُها فيه آخِرَ مرّةٍ موجودًا. أُنشِئَ في مكانه الآن أحدُ تلك المباني التي تخطف الأبصار وتبلّط السماءَ بالظلال. ورغم هذا، وحتّى اليوم، كلّما مررتُ من هناك تذكّرتُ تلك الأيّام اللعينة من أعياد ميلاد العام ١٩٣٨ التي كان خلالها شارعُ مونتانر منحدرًا مخطّطًا بسكك الترام والقصور الضخمة. كان عمري في تلك الآونة ثلاثة عشر عامًا تقريبًا، أتقاضى بضعة قروش أسبوعيًّا بالعمل أجيرًا في محلّ رهونات في شارع إليزابيث. وكان صاحب المحلّ، الدون أودون يوفريو، البالغ مئةً وخمسة عشر كيلو من العوز والتوجُّس، يشرف على بازاره الذي يغصّ بالخردة، ويشتكي حتّى من الهواء الذي يستنشقه هذا اليتيمُ الحقير، واحدٌ من بين آلاف اليتامى الذين تتقيّأهم الحرب، ولا يناديه باسمه أبدًا.

- ها يا ولد، اتّقِ اللّه وأطفئ ذلك المصباح فهذا ليس زمانًا يُبَذَّرُ فيه المال. ومرِّر الخرقةَ على ضوء الشمعة، فذلك يحفِّز شبكيّة العين.

هكذا كنّا نقضي نهاراتنا، ما بين أنباءٍ مروّعة آتيةٍ من الجبهة القوميّة التي كانت تتقدّم نحو برشلونة، وشائعاتٍ عن صداماتٍ دامية واغتيالاتٍ في شوارع الحيّ الصينيّ، وصافرات الإنذار التي تحذِّر من الغارات الجويّة. وفي أحد تلك الأيّام من ديسمبر عام ١٩٣٨، إذ كانت الطرقات مرشوشةً بالثلج والرماد، رأيتُها.

كانت ترتدي ثيابًا بيضاء حتّى لقد بدا شخصُها مجترَحًا من الصقيع الذي يكتسح الطرقات. دخلت إلى المحلّ وتوقّفت في مستطيل الضياء الخافت الذي يقصّ العتمة متسرّبًا من الواجهة. كانت تحمل في يديها قماشةً مخمليّةً سوداء فتحتها على المصطبة دون أن تقول شيئًا. إكليلٌ من الجمان والياقوت يتلألأ في الظلّ. وضع الدون أودون عدسته وتفحّص القطعة. كنتُ أتابع المشهد من خلف ستارة باب المستودع.

- لا بأس بها، لكنّنا لسنا في زمانٍ يُبَذَّرُ فيه المال يا آنسة. أعطيكِ مئتين وخمسين بيسيتا، وأخسر فيه، لكنّ هذا المساء عشيّة الميلاد، والداعي ليس من حجر.

لفّت الفتاة القماشة المخمليّة وسارت نحو المخرج دون أن يرفّ لها جفن.

- يا ولد! - صاح الدون أودون - اتبعها!

- الطوق يعادل خمسة آلاف بيسيتا على الأقلّ. - قلت.

- عشرة آلاف. - صحّح الدون أودون - لذا لن نفوِّتها من أيدينا. اتبعها إلى بيتها وتأكّد ألّا يعتدي عليها أحدٌ وينشله منها. ستعود، مثل الجميع.

كان أثر الفتاة يندمج في العباءة البيضاء التي حطّت على المدينة عندما خرجتُ إلى الطريق. تبعتُها في متاهة الأزقّة والأبنية التي دمّرها القصف والشقاء حتّى دلفت إلى ساحة بيزو دي لا باخا، حيث أسعفني الوقت لرؤيتها تركب الترام الذي كان صاعدًا إلى شارع مونتانر. ركضتُ وراءه وقفزتُ إلى عتبته الخلفيّة.

وصعدنا هكذا مخلِّفين خطوطًا سوداء على بساط الثلج الذي تمدّه الريح بينما يهبط الظلام وتُدبَغُ السماء بالدماء. وحين وصلنا إلى التقاطع مع جادّة دي غراثيا، كانت عظامي تؤلمني من البرد. كنت على وشك الانسحاب من مهمّتي وتلفيق كذبة لإرضاء الدون أودون عندما رأيتها تنزل وتسير نحو مدخل القصر الكبير. قفزتُ عن الترام وركضتُ للاختباء خلف الزاوية. اجتازت الفتاة بوّابة الحديقة. تطلّعتُ من بين القضبان ورأيتُها تلج الحرشَ الصغير المحيط بالبيت. توقّفت عند أعتاب السلالم والتفتت. أردتُ أن ألوذ بالفرار، لكنّ الريح المتجمّدة سلبت منّي كلَّ رغبة. رمقتني الفتاة بابتسامة واهنة ومدّت يدها نحوي. ففهمتُ أنّها تظنّني متسوِّلًا.

- تعال. - قالت.

ساد الظلام عندما تبعتُها إلى القصر المعتم. كانت زواياه تضاء بهالة نور طفيف. كتبٌ مبعثرة وستائرُ مهترئة ترقِّط وجه الأثاث المحطّم واللوحات المقطّعة والبقع القاتمة المتفشّية على الجدران كأنّها آثار طلقات ناريّة. وصلنا إلى صالة كبيرة فيها

ضريحٌ من صورٍ قديمة تفوح منها رائحةُ الغياب. جلست الفتاة القرفصاء في الزاوية بجانب الموقدة وأضرمت النار بأوراق جريدة وبقايا كرسيّ. اقتربتُ من ألسنة اللهب وتناولتُ قدح النبيذ الدافئ الذي أعطته لي. قعدت بجانبي، ونظراتها تهيم في النار. قالت لي إنّ اسمها أليثيا. كانت بشرتها لبنتٍ في عامها التاسع عشر، لكنّ نظرتها الثقيلة عديمة القاع تشي بأنّها من أولئك الذين لم يعد لديهم أعمار، وحين سألتُها إن كانت تلك الصور لعائلتها لم تقل شيئًا.

تساءلتُ منذ متى تسكن هناك، وحيدةً، مختبئةً في ذلك القصر بلباسها الأبيض الذي تفتَّقَ من كثرة الرتق، تبيع الجواهرَ بأثمانٍ زهيدةٍ لكي تعيش. كانت قد تركت القماشة المخمليّة السوداء على رفّ الموقدة. وكلّما انحنت لإذكاء النار شرد نظري وتخيّلتُ الطوق في داخلها. سمعنا أجراس منتصف الليل بعد ساعات، وكنّا متعانقين بجانب النار، نلتزم الصمت، فقلت في سرّي هكذا كانت والدتي تعانقني لو كنتُ أذكرها. وعندما بدأ اللهب يذوي، أردتُ أن أرمي كتابًا ما بين الجمر، لكنّ أليثيا انتزعته منّي وراحت تقرأ من صفحاته بصوت مرتفع حتّى غَلَبَنا النعاسُ.

خرجتُ قبل الفجر بقليل، متحرّرًا من عناقها، ركضتُ تحت الظلام نحو البوّابة حاملًا القلادة في يدي، وقلبي يخفق مسعورًا. أمضيتُ الساعات الأولى من يوم الميلاد ذاك وفي جيبي عشرة آلاف بيسيتا من الجمان والياقوت، وكنت ألعن تلك

الطرقات الغارقة في الثلج والغضب، وألعن أولئك الذين تخلّوا عنّي وسط النيران، إلى أن رمت الشمسُ الخائرةُ سهمًا من النور بين السحب فعدتُ أدراجي إلى القصر، أجرّ تلك القلادة التي باتت أثقل من لوحٍ رخاميٍّ يخنقني، وما كنت أرغب إلّا في العثور عليها وهي ما تزال غافية، غافية إلى الأبد، لكي أعيد القلادة إلى الرفّ الذي يعتلي الجمر ومن ثمَّ أهرب كي لا يتعيَّن عليّ أن أتذكّر نظرتها وصوتها الدافئ، الذي كان أنقى ملمسٍ عرفتُه.

كان الباب مفتوحًا والضوء الأرجوانيّ يقطر من صدوع السقف. وجدتُها ملقاةً على الأرض، والكتاب ما يزال بين يديها، وشفتاها مكسوّتين بالصقيع ونظرتها مفتوحة على وجهها الجليديّ الأبيض، وثمّة دمعةٌ حمراء عالقة على خدّها، والريح تهبّ من تلك النافذة المشرعة لتدفنها بالثلج البارد. تركتُ القلادة على صدرها وهربتُ إلى الطريق من جديد، لأختلط بأسوار المدينة وأختبئ في صمتها، متهرّبًا من انعكاسي على الواجهات الزجاجيّة خشيةَ أن أرى فيها شخصًا غريبًا.

وبعد قليل، خفتت أجراس الميلاد إثر ارتفاع صافرات الإنذار مجدّدًا، وتناثر سربٌ من الملائكة السوداء في سماء برشلونة الخمريّة، لتُسْقِطَ أعدادًا من القنابل المتتالية التي لن يراها أحدٌ وهي ترتطم بالأرض.

رجالٌ باللون الرماديّ

لم يخبرني باسمه يومًا ولم أسأله عنه إطلاقًا. كان ينتظرني، كما درجت العادة، عند ذلك المقعد القديم في منتزه ريتيرو، المقعد الرازح تحت أغصان الزيزفون المتشابكة التي عرّاها الشتاءُ والمطر. كان يضع نظّارةً سوداء توصد بئر نظرته. جلستُ على الطرف المعاكس للمقعد. مدّ لي المرسالُ المظروفَ فأخذتُه من دون أن أفتحه.

- ألا تحصي المبلغ؟

نفيتُ بهزّةٍ من رأسي.

- ينبغي لك أن تفعلها. التسعيرة هذه المرّة هي ثلاثة أضعاف. فضلًا عن أجور التنقُّل والإقامة.

- أين؟

- برشلونة.

- أنا لا أعمل في برشلونة. وأنتم تعرفون ذلك. كلِّفوا سانابريا.

- فعلنا. وقد وقعت مشكلة.

أخرجتُ المظروف بما يحتويه من مالٍ وأرجعتُه إليه.

- لا أعمل في برشلونة. تعرفون ذلك جيّدًا.

- ألا تسألني مَن هو الزبون؟

كانت ابتسامته تبثّ السمّ.

- المظروف يحتوي على كلّ التفاصيل. وستجد في خزانة الأمتعة في محطّة أتوتشا تذكرةً باسمك لرحلة القطار هذه الليلة. طلب منّي السيّد الوزير أن أبلغك جزيل شكره وامتنانه. إنّه لا ينسى الأفضال أبدًا.

نهض المرسالُ ذو النظّارة السوداء، وتهيّأ للانصراف تحت المطر بانحناءةٍ وجيزة. كنّا نلتقي منذ ثلاثة أعوام في تلك الزاوية نفسها من المنتزه، عند الفجر دائمًا، ولم نتبادل كلمةً واحدة أكثر من الضروريّ إطلاقًا. نظرتُ إليه وهو يضع القفّازات الجلديّة السوداء. كانت يداه تنفتحان مثل عنكبوت. أحسّ بنظرتي المهتمّة فتوقّف.

- هل من مشكلة؟

- مجرّد فضول. ماذا تقول لأصدقائك إذا سألوك عن طبيعة عملك؟

عندما كان يبتسم، كان وجهُهُ الجثثيُّ يتماهى بأكفان السترة المطريّة.

- شرطة. أقول لهم إنّني أعمل في سلك الشرطة.

أومأتُ.

- وأنت؟ - سألني - ماذا تقول لهم؟

- أنا ليس لديّ أصدقاء.

كانت شظايا الضباب المتجمّد تزحف على قبّة محطّة أتوتشا في ذلك اليوم ٩ يناير ١٩٤٢، عندما دخلتُ إلى الرصيف المقفر لركوبِ قطار منتصف الليل السريع المتّجه إلى برشلونة. وقد أمّنَ لي امتنان السيّد الوزير تذكرةً في الدرجة الأولى وحرمةً مخمليّةً في مقصورةٍ كاملة من أجلي حصرًا. لا يفنى الاحترام السائد بين المحترفين، وإن في فترةٍ حرجةٍ كتلك. انزلق القطار ليسطِّر خطوطًا من البخار في الظلمات وسرعان ما تلاشت المدينة في نفحة أضواءٍ خافتة وأراضٍ بائرة. وفي تلك اللحظة فتحتُ المظروف وأخرجتُ الأوراق المطويّة بشكلٍ لا يعلى عليه، والمخطوطات المُنضَّدة على الآلة الكاتبة بفراغاتٍ لا تتجاوز ضربةً ونصف بحبرٍ أزرق. فوجئتُ بأنّ المظروف لا يحتوي على أيّ صورة فوتوغرافيّة. وتساءلتُ إن كانت الصورة الشخصيّة الوحيدة للزبون قد سُلِّمَت لسانابريا. واكتفيتُ بقراءة سطرين من التقرير لأفهم أنّ في هذه المرّة لا توجد أيُّ صورة.

أطفأتُ ضوء المقصورة وتركتُني لليلة الأرق حتّى أدمى الفجرُ الأفقَ باللون الخمريّ، وتبدّى طيف مونتويك في البعيد. كنتُ قد أقسمتُ قبل ثلاثة أعوام ألّا أعود إلى برشلونة أبدًا. كنتُ قد هربتُ من مدينتي بروحٍ مسمومة. غصنا في غابةٍ من المصانع الشبحيّة وضباب الكبريت، ثمّ ابتلعتنا المدينة بعد قليل في نفقٍ تنبعث منه روائح السخام واللعنة. فتحتُ الحقيبة ولقّمتُ مخزن مسدّسي الريفولفر الذي علّمني سانابريا استعماله في تلك

الأعوام التي كنتُ فيها متمرِّنًا عنده في شوارع الحيّ الصينيّ.
طلقاتٌ من عيار تسعة ملمترات، برؤوسٍ مجوّفة لكي تنفتحَ كأنيابٍ من معدنٍ مصهورٍ عند الاصطدام وتخلِّفَ ثقبًا بحجم قبضة عند الاختراق. وحين نزلتُ من القطار ووجدتُني قبالة محطّة فرنسا الشامخة ككاتدرائيّةٍ من حديد، استقبلتني ريحٌ باردةٌ ورطبة. كنتُ قد نسيتُ أنّ المدينة ما تزال تتضوّع برائحة البارود. انطلقتُ نحو شارع لايتانا تحت انهمار ثلجٍ غباريٍّ يحوم في عتمة الفجر السائلة. كانت عربات الترام تشقّ دروبًا في تلك العباءة البيضاء، وألوان الناس رماديّة ولا وجوه لهم يتسكّعون تحت أنفاس أعمدة الإنارة المضاءة لتنثر الطرقات بصبغةٍ بنفسجيّة. قطعتُ ساحة بالاثيو، وولجتُ عقدة الشوارع المحيطة بكاتدرائيّة سانتا ماريّا دل مار. معظم الأبنية المدمّرة بفعل القصف الجويّ ما تزال على حالها. وكانت بواطنُ المباني التي سلختها القذائف - صالات جلوس، غرف نوم، حمّامات خاوية في مرمى البصر - ترزح بجانب مواقع تغصّ بالأنقاض التي باتت مأوىً لمهرّبي الفحم ووجوهٍ رثّةٍ لا ترفع أعينها عن الأرض.

وصلتُ إلى نهاية شارع بلاتيريا، توقّفتُ لأشاهد هيكل البناية التي نشأتُ فيها. لم يبق منها سوى الواجهة وقد شوّهتها النار، والجدران المحاذية. وما زالت ماثلةً ندوبُ القنابل الحارقة التي رجمت البيوت وصبّت إعصارًا لاهبًا في المنور وفجوات السلالم. اقتربتُ من البوّابة وتذكّرتُ اسم أوّل فتاةٍ

قبّلتُها في إحدى أمسيات صيف العام ١٩١٣ تحت أسكفة بنايتها. كان اسمها ميرتشه وتقطن في الطابق الثالث مع أمٍّ عمياء لم تكن تستلطفني البتّة. ميرتشه لم تتزوّج. قيل لي لاحقًا إنّهم رأوها خلال أحد تلك الانفجارات تخرج على الملأ من الشرفة، عاريةً ومغمورةً بألسنة اللهب، وجسمها منخور بألف شظيّة من الزجاج المحطّم. أعادني وقعُ الخطى خلف ظهري إلى الحاضر. التفتُّ لأجد شخصًا باللون الرماديّ بدا لي نسخةً عن المرسال ذي النظّارة السوداء. بتُّ أعاني في التمييز بينهم. إذ إنّ رائحة الجيف نفسها تنبعث من أنفاسهم ونظراتهم جميعًا.

- أنت، قف. بطاقتك! - لاك الكلمات بلهجةٍ متغطرسة.

أحسستُ بنظراتٍ تلسعني، وخطواتٍ متسارعةٍ لأشخاصٍ هزيلين. تمعّنتُ في عميل اللواء الاجتماعيّ. وقدّرتُ أن يكون في عامه الأربعين أو أكبر قليلًا، له من الوزن سبعون كيلو وعبءٌ ثقيل على كاهله. وكان شاله الأسود يتيح رؤية جزء صغير من عنقه. بإمكان طعنةٍ خاطفة، بوساطة سكّينٍ صغيرة، أن تجزّ قصبته ووريده في أقلّ من ثانيةٍ، ليهوي بلا صوت ويبعثر حياته بين أصابعه على بساط الثلج الملطّخ بدمائه عند قدميه. رجالٌ مثله لديهم عائلة، وأنا لديّ ما أقوم به. وجّهتُ إليه ابتسامةً طفيفة مع الوثيقة الممهورة بختم الوزارة. تلاشت غطرسته بغتةً وأعاد الوثيقة إليّ بيدٍ مرتجفة.

- أرجوك أن تعذرني يا سيّدي. لم أكن أدري أنّ. . .

- اختفِ.

هزّ العميل رأسه مرارًا واختفى بعجالةٍ خلف أوّل زاوية صادفها. كانت أجراس سانتا ماريّا تُقرَع في المدى من ورائي عندما استأنفتُ المسير تحت الثلج نحو شارع فرناندو لكي أتحوّل إلى رجلٍ رماديّ في خضمّ رجالٍ رماديّين فاضوا بذلك الصباح الشتويّ. كان أحدهم يتبعني خلسةً من على مسافة عشرين مترًا، منذ أن خرجتُ من المحطّة، ومن الوارد أنّه موقنٌ بأنّي لم أنتبه لوجوده. تواريتُ في ذلك التيه الرماديّ المريح الذي يرتدي فيه المجرمون، سواء أكانوا محترفين أم هواة، ثيابًا تليق بمحاسبين محترمين، وقطعتُ لاس رامبلاس باتّجاه فندق الشرق. فتح لي البابَ بكلّ إجلالٍ حارسٌ متأنّقٌ بزيّه وحاصلٌ على شهادةٍ بقراءة النظرات. ما زال الفندق يتّسم بمعالم السفينة الغارقة. عرفني موظّف الاستقبال مباشرةً، ولوّح بابتسامةٍ زائفة، بينما كانت أصداء بيانو ناشز تحوم من خلف الزجاج المغلق على صالة الطعام.

- هل يرغب السيّد في الغرفة رقم ٤٠٦؟

- إن كانت متوافرة.

وقّعتُ على السجلّ بينما أشار الموظّف للحمّال أن يصعد بحقيبتي ويرافقني إلى الغرفة.

- أعرف الطريق، شكرًا.

تراجع الحمّال إثر نظرةٍ سدّدها إليه الموظّف.

- إن كان هناك ما يمكننا القيام به لنضمن إقامةً ممتعةً لحضرتك في برشلونة، ما عليك سوى إبلاغنا به يا سيّدي.

- المعتاد. - أجبتُ.

- أجل يا سيّدي. كن مطمئنًّا.

سرتُ نحو المصعد ثمّ توقّفتُ. ما يزال موظّف الاستقبال في مكانه، وقد تحجّرت ابتسامته.

- هل السيّد سانابريا نزيلٌ في الفندق؟

رفّ جفناه بسرعةٍ خاطفة، لكنّها كانت كافية بالنسبة إليّ.

- منذ مدّةٍ لا يشرّفنا السيّد سانابريا بحضوره.

الغرفة ٤٠٦ تطلّ على ممشى دي لا رامبلا، وتعتلي الطابق الرابع بإطلالةٍ سماويّة على شبح المدينة المفقودة التي حُتِّمَ عليَّ أن أتذكّرها منذ الأعوام السابقة للحرب. وكان ظلّي ينتظرني في أسفل، متواريًا تحت سقف أحد الأكشاك. أغلقتُ مصراع النافذة إلى أن غرقت الغرفة في ظلمةٍ لؤلؤيّة واستلقيتُ على السرير. كانت ضوضاء المدينة تزحف خلف الجدران. أخرجتُ مسدّسي من الحقيبة، ووضعتُ إصبعي على الزناد، وضممت يديّ على صدري وأغمضتُ عينيّ. غططتُ في نومٍ موحلٍ وعدائيّ. بعد ساعاتٍ أو دقائق، أيقظتني شفاهٌ رطبة تلثم جفنيَّ. كان جسد كانديلا الدافئ مستلقيًا على السرير، بينما تفكّ أزرارها بأصابعها البخاريّة، فيشتعل جلدها الأبيض السكّريّ على انعكاس أعمدة الإنارة الليليّة.

- كم مرّ من وقت - غمغمت وهي تنزع المسدّس من يديّ وتضعه على الدُّرج. - بوسعي أن أبقى الليلة كلّها إن أردتَ.

- عليّ أن أعمل.

- ولكن ستتوافر لك لحظةٌ من أجل عزيزتك كانديلا.

لم تمْحُ ثلاثة أعوام من الغياب ذكرى جسد كانديلا من يدي. جعلتها الأزمنةُ الحديثة ورخاء الفنادق الفاخرة أفضل حالًا. كان صدرها يتضوّع برائحة عطرٍ ثمين، وقد استنتجتُ صلابةً لم أعهدها في فخذيها الناصعين والمغلولين في تلك الجوارب الحريريّة التي كانت تطلبها من باريس. بصبرها وخبرتها، تركتني كانديلا أمارس حتّى أرويتُ ظمئي من جلدها وتنحّيتُ. أحسستُ أنّها تمشي نحو الحمّام وتستخدم الماء. نهضتُ وأخذتُ مظروف المال الذي كان في الحقيبة. دفعتُ لها ثلاثة أضعاف تسعيرتها المعتادة وتركتُ النقود مطويّةً على الدُّرج. استلقيتُ على السرير ولاحظتُ أنّ كانديلا تقترب من النافذة وتفتح الدفّة. كان الثلج المتساقط خلف الزجاج يرسم نقاطًا مظلّلةً على جلدها العاري.

- ماذا تفعل؟

- أستمتع بالنظر إليكِ.

- ألا تسألني أين هو؟

- لماذا، هل كنتِ ستخبرينني؟

التفتت وجلست على طرف السرير.

- لا أعرف أين هو. لم أره. إنّها الحقيقة.

اقتصرتُ على الإيماء. نقلت كانديلا نظرها نحو المال الرابض فوق الدُّرج.

- أمورك تجري على ما يرام. - قالت.

- لا أشتكي.

هممتُ بارتداء ثيابي.

- هل ستخرج الآن؟

لم أردّ.

- هنا يوجد ما يكفي من مال لليلة كلّها. سأنتظرك إن أردتَ.

- سأتأخّر يا كانديلا.

- لستُ مستعجلة.

كنت قد عرفتُ روبرتو سانابريا ذات ليلة في العام ١٩١٧. كانت المدينة تعاني تحت وطأة قيظ أغسطس البخاريّ والغاضب. دوّى صوت أعيرة ناريّة في الحيّ تلك الليلة، مثل بقيّة الليالي تقريبًا. وكنتُ قد نزلتُ إلى جادّة بورن لملء الماء من النافورة. وعندما سمعتُ صوت الطلقات هُرِعتُ لأختبئ خلف بوّابة إحدى بنايات شارع مونكاذا. وكان سانابريا ملقىً على الأرض ينزف بئرًا سوداء، بحيث تفشّت بقعةٌ لزجة عند قدميّ، في مدخل ذلك الصدع الكئيب ما بين المباني العتيقة التي كان أحدهم ما يزال يسمّيه شارع الذباب. ثمّة مسدّسٌ ينفث دخانًا بين يديه. دنوتُ فابتسم لي بشفتين تتصبّبان دمًا.

- لا تقلق يا فتى، لديّ حيواتٌ أكثر من قطّ.

ساعدتُه على النهوض، وأسندتُ خطواته المتثاقلة ورافقتُه إلى بوّابة في شارع الحمّامات القديمة، حيث استقبلتنا امرأة بدينة لها ملامحُ مأتميّة وجلدٌ حرشفيّ. كان سانابريا يختزن

رصاصتين في البطن وقد نزف دماءً كثيرة حتّى ابيضّت بشرته كالشمع، لكنّه لم يكفّ عن الابتسام لي بينما كان طبيبٌ بصفة دجّال تفوح منه رائحة الخمر يعقّم جراحه بالخلّ والكحول.

- إنّي مدينٌ لك بمعروفٍ أيّها الفتى. - قال قبل أن يغمى عليه.

كان سانابريا سيصمد في تلك الليلة وليالٍ كثيرةٍ أخرى حافلةٍ بالبارود والسكاكين. هي تلك الأيّام التي كانت فيها جرائد برشلونة تقدح مقالاتٍ صارخة بسبب قتل الناس في الشوارع. وقد سطع نجم نقابات القتلة المأجورين. فالحياة ما زالت قليلة القيمة كالعادة، إلّا أنّ الموت لم يكن رخيص الثمن مثلما كان عليه في تلك الآونة. سانابريا هو الذي علّمني الحرفة حين بلغتُ السنّ المناسبة.

- إلّا إذا أردتَ أن تموت عاملًا مياومًا مثل أبيك.

القتل ضرورة، لكنّ الاغتيال فنّ - كان يدّعي. أدواته المفضّلة هي مسدّس الريفولفر والسكّين ذات الشفرة القصيرة والمنحنية التي يستخدمها مصارعو الثيران بالضربة القاضية والخاطفة في الحلبة. علّمني سانابريا أنّه لا ينبغي إطلاق النار على رجلٍ إلّا في وجهه أو صدره، على بُعد أقلّ من مترين إن أمكن. سانابريا محترفٌ ذو مبادئ. لا يعمل مع النساء والعجَّز. وقد تعلّم القتل في الحرب في المغرب، مثل كثيرين غيره. وإبّان عودته إلى برشلونة استهلّ مسيرته منخرطًا في صفوف قتلة اتّحاد الأناركيّين الإيبيريّين، وسرعان ما اكتشف أنّ أصحاب المصانع

يدفعون أجورًا أعلى وأنّ العمل لديهم لا يتأثّر ببياناتٍ صاخبة. كان يحبّ المسرح الترفيهيّ والعاهرات، هواياتٌ لقّنني إيّاها بصرامةٍ أبويّة وتنظيرٍ أكاديميّ نوعًا ما.

- لا توجد في هذا العالم حقيقةٌ تفوق مسرحيّةً جيّدة وعاهرةً طيّبة. لا تبخسهما الاحترام أبدًا ولا تظنّن يومًا أنّك أسمى منهما.

وكان هو الذي قدَّم إليّ كانديلا وهي في عامها السابع عشر حيث كان العالم يسكن جلدها وكانت تعد بمستقبلٍ زاهر بالعمل في غرف أفخر الفنادق ومكاتب المجلس الإقليميّ.

- إيّاك أن تقع في غرام مَن ليس له ثمن. - نصحني سانابريا.

سألته ذات مرّة كم رجلًا قتل.

- مئتين وستّة. - أجاب - لكنّ الزمن القادم سيكون أكثر ازدهارًا.

كان مرشدي يتحدّث عن الحرب التي كنّا نشمّ رائحتها في الهواء مثل نتانة المجارير الطافحة. وقُبَيْلَ صيف العام ١٩٣٦، قال لي إنّ الزمن سيتغيّر، وإنّه سيتعيَّن علينا مغادرة برشلونة قريبًا، لأنّ المدينة تتداعى بفعل وتدٍ مدقوقٍ في القلب.

- الموت الذي يتبع الذهب أينما حلّ، سينتقل إلى مدريد.
- أفصَحَ - ونحن معه. مسألة وقت.

بدأ الازدهار الحقيقيّ في نهاية الحرب. كانت دهاليز

السلطة تتلوّى في شباكٍ جديدة، ومثلما توقَّعَ معلّمي فإنّ دماء مليون ضحيّة بالكاد استطاعت أن تروي ظمأ الحقد المتعفّن في الطرقات. فُتِحَت أمامنا أوسعُ الأبواب بفضل معارفنا القدامى من صناعيّي برشلونة.

- كفى قتلًا للمساكين في المبولات العامّة مقابل فلوسٍ زهيدة. - صرّح سانابريا - سنبدأ العمل الآن مع زبائن من مستوىً مرموق.

عامان من المجد. عقولٌ مدبِّرةٌ وموهوبة بذاكرةٍ مذهلة تُعِدُّ قوائم مطوّلة من شخصيّاتٍ لا تستحقّ الحياة، وملاعين تلوِّث أنفاسُهم روحَ المرحلة الجديدة والنقيّة. عشراتٌ من النفوس المرتجفة يختبئون في شققٍ تعيسة خشيةً من ضوء النهار ولا يعرفون أنّهم موتى أحياء. علّمني سانابريا ألّا أصغي إلى توسّلاتهم، وبكائهم وآهاتهم، وأن أهشّم رؤوسهم برصاصةٍ من على مسافة قريبة مسدّدًا بين أعينهم قبل أن يتمكّنوا من السؤال عن السبب. كان الموت لهم بالمرصاد في محطّات المترو، في الطرقات المعتمة، وفي الأنزال الرديئة التي لا ماء فيها أو ضوء. أساتذة أو شعراء، جنود أو حكماء، كان جميعهم يعرف مَن نكون بنظرةٍ واحدة. وكان بعضهم يموتون بكرامة، بنفسٍ صافية، ونظراتٍ ساطعة تحدِّق في أعين قتلتهم. لا أذكر أسماءهم، ولا ما فعلوا في حياتهم ليستحقّوا الموتَ على يديّ، لكنّي أذكر نظراتهم. وما لبثتُ أن تشوّشتُ في إحصاء أعدادهم، أو أنّني تعمّدتُ ذلك. وحين شعر سانابريا بوطأة الأعوام

والندوب التي رضخ لها ليبقى صامدًا في المهنة، تنازل لي عن المهمّات الأعلى شأنًا.

- باتت عظامي تعاني. اعتبارًا من اليوم سأكتفي بزبائن أقلّ أهمّيّةً. يجب أن يعرف المرء متى يقف عند حدّه.

كنتُ في العادة ألتقي بالمرسال ذي النظّارة السوداء على المقعد ذاته في منتزه ريتيرو مرّةً في الأسبوع. ثمّة مظروفٌ وزبونٌ جديد دومًا. كان المال يتراكم في حسابٍ لدى أحد الأفرع في شارع أودونيل. الشيء الوحيد الذي لم يعلّمني إيّاه سانابريا هو ما الذي أفعله بهذه الأوراق النقديّة، الملمَّعة بالعطر والنشاء، والخارجة من دار سكّ العملة توًّا.

- هل ستنفد يومًا ما؟ - سألته في إحدى المناسبات.

أمّا تلك المرّة فهي الوحيدة التي ينزع فيها المرسال نظّارته، ليكشف عن عينين رماديّتين مثل الروح، ميّتتين وخاويتين.

- هناك دومًا مَن لا يتأقلم مع التطوّرات.

كان الثلج ما يزال متساقطًا عندما خرجتُ إلى لاس رامبلاس. نُدَفٌ من غبار الجليد المسحوق لا تقوى على التراكم، تقلّبها الريحُ في بقعٍ ضوئيّةٍ تحبس الأنفاس. سرتُ باتّجاه شارع نويبا، الذي استحال نفقًا مظلمًا تحفُّهُ أطلالٌ منسيّةٌ من المراقص المتهالكة وأشباح منصّات الميوزيك هول بعد أن كان منذ أعوام قليلة خلت يشكّل دربًا يضجّ بالحياة والأنوار والصخب حتّى الفجر. الأرصفةُ أسيرةٌ لروائح البول والفحم.

ولجتُ شارع لانكاستر وهبطتُ حتّى الرقم ١٣. هناك قنديلان قديمان معلّقان على واجهة البناية يخدشان الظلمات بمشقّة، لكنّهما يكفيان لرؤية اللافتة المطروقة على البوّابة الخشبيّة المحروقة التي توصد الدخول.

مسرح الظلال
يعود إلى برشلونة بعد جولةٍ
عالميّةٍ ظافرة، ليقدِّم أحدث وأعظم عروض العرائس
والدمى الآليّة،
بمشاركةٍ حصريّة للنجمة الباريسيّة في عالم الميوزيك هول
صاحبة الحضور الملغّز مَدَام إيزابيل
التي ستؤدّي مقطوعتها الخارقة «رقصة ملاك منتصف الليل».
العروض في كلّ ليلة، عند الساعة ١٢.

طرقتُ بقبضتي مرّتين، انتظرتُ وطرقتُ من جديد. مرّت دقيقةٌ تقريبًا قبل أن يتناهى إليَّ صوت خطوات من الجانب الآخر للبوّابة. انفتح اللوح الخشبيّ بضعة سنتمترات ليكشف عن وجه امرأةٍ ذات شعرٍ فضّيّ وحدقتين سوداوين تفيضان بمحجريهما. ضوءٌ مذهّبٌ، وسائل، ينساب من الداخل.

- مرحبًا بك في مسرح الظلال. - صرّحت.

- أبحث عن السيّد سانابريا. - قلتُ - أعتقد أنّه في انتظاري.

- صديقك ليس هنا، ولكن إن أردتَ الدخول فالعروض على وشك البدء.

تبعتُ السيّدةَ على امتداد ممرٍّ ضيّق حتّى الصالة التي تهبط في قبو المبنى. هناك حوالي اثنتي عشرة طاولة خالية من الجلساء ومتفرّقة في أرجاء القاعة. كانت الجدران ملبّسةً بالمخمل الأسود وقناديل تبثّ إبَرَ الضوء التي تخز الأجواء البخاريّة. لا وجود إلّا لزبونين ذابلين عند عتبة الظلمة المحيطة بالقاعة. ومصطبةٌ لتقديم المشاريب مرصّعةٌ بالمرايا المموّهة، وخندقٌ لعازف البيانو مدفونٌ في الضوء النحاسيّ لإكمال المشهد. وكان الستار الخمريّ المسدل مزيّنًا بدميةٍ من العرائس بزيّ مهرّج هارلكوين. جلستُ إلى طاولة قبالة الخشبة. كان سانابريا مولعًا بمسرح العرائس. ويقول دومًا إنّ العرائس أكثر من غيرها تذكّره بالناس العاديّين.

- أكثر من العاهرات.

قدّم لي النادل ما تصوّرتُ أنّها كأس براندي ومضى في حاله بصمت. أشعلتُ سيجارةً وانتظرتُ أن تنطفئ الأضواء. وعندما طغى الظلام، انزلقت حنايا الستار الخمريّ ببطء. مجسَّمُ ملاكٍ مُبيد، معلَّقٌ بخيوط فضّيّة، يهبط إلى المشهد وهو يرفرف بجناحيه السوداوين ما بين الأبخرة الزرقاء.

عندما فتحتُ المظروف ذا النقود والمعلومات في القطار المتّجه إلى برشلونة، وهممتُ بقراءة الصفحات المنضَّدة، أدركتُ أنّ هذه المرّة لن تكون للزبون صور. لا حاجة إلى

ذلك. ففي الليلة التي غادرنا سانابريا وأنا فيها من برشلونة، ركّز معلّمي نظره في عينيّ، وكانت يداه تحويان النزيف الذي لطّخ صدري، وابتسم لي.

- إنّي مدينٌ لك بمعروف، وسأردّه لك. نحن متعادلان الآن. سيأتي رجلٌ لقتلي يومًا ما. ففي هذا العمل لا يمكن لأحدٍ أن ينجح إلّا إذا انتهى به المطاف للجلوس على كرسيّ الزبون. هذا هو القانون. ولكن عندما ستحين ساعتي، وهي ليست ببعيدة، أودّ أن تكون أنت قاتلي.

كان تقرير الوزارة، كالعادة، يلمِّح للطلب ما بين السطور. سانابريا عاد إلى برشلونة منذ ثلاثة أشهر. وقد أحدث قطيعته مع الشبكة قبل ذلك، عندما لم يحترم عدّة عقود قائلًا إنّه رجلٌ ذو مبادئ في حقبةٍ تخلو منها تمامًا. الخطأ الأوّل الذي ارتكبته الوزارة يكمن في محاولة تصفيته. والخطأ الثاني، الفادح، هو عدم تحضير المحاولة بالشكل الأمثل. ما عاد من أثرٍ للقاتل الأوّل الذي أوفدوه سوى يده اليمنى، مُرسَلةً بعلبةٍ بالبريد المسجَّل. من الممكن اغتيال رجلٍ مثل سانابريا، ولكن من المستحيل إهانته. لم تنقضِ أيّامٌ قليلة من وصوله إلى برشلونة وإلّا وتساقط عملاء شبكة الوزارة واحدًا تلو الآخر. كان سانابريا يعمل ليلًا وقد عاد يحيي مهارته في اللسع بالسكّين القصيرة. وكاد يسحق البنية الأساسيّة للواء الاجتماعي في برشلونة المدينة بغضون أسبوعين. وبعد ثلاثة أسابيع، بدأ يجني غنائمه من أكثر قطاعات النظام انتقاءً وانكشافًا. قرّرت مدريد،

قبل أن يرتفع منسوب القلق عندها، أن تبعث أحد أزلامها الأقوياء للتفاوض مع سانابريا. وها هو رجل الوزارة يرقد الآن على مصطبةٍ رخاميّة داخل المشرحة في الدائرة الخامسة بابتسامةٍ جديدةٍ مخطوطةٍ بالسكّين على عنقه، مطابقةٍ لتلك التي أنهت حياة الضابط العامّ مانويل خيمينيث سالغادو، النجم اللامع في الحكومة العسكريّة والمرشّح القويّ لترقية باهرة في وزارات العاصمة. فلجأوا إليّ حينذاك. كان التقرير يصف الوضع بأنّه «أزمة عميقة». إذ إنّ سانابريا قرّر، وفقًا لمفاهيم الوزارة، أن يتصرّف بحريّته المطلقة وأن ينغمس في العالم السفليّ لبرشلونة لتحقيق ما يشبه الثأر الشخصيّ من أعضاء بارزين في القضاء العسكريّ التابع للنظام. يجب اجتثاث المؤامرة من جذورها - يتابع التقرير - بأيّ ثمن.

- كنت أنتظر قدومك. - غمغم صوتُ مرشدي من الظلّ. على الرغم من تقدّمه في السنّ كان القاتل العجوز قادرًا على التسلّل تحت الظلام بحنكة القطّ الذي امتاز بها في أيّام عزّه. ابتسم لي.

- تبدو بحالٍ جيّدة. - قلت.

رفع سانابريا كتفيه وأشار نحو الخشبة، حيث انفتح تابوتٌ من خشبٍ مطليّ كما تتفتّح الزهرة ليكشف عن نجمة عرض الدمى الآليّة، مَدَام إيزابيل ورقصتها «رقصة ملاك منتصف الليل». كانت حركات الدمية، البشريّة من حيث حجمها وتعابيرها، تبعث على النعاس. إيزابيل، مربوطةً بخيوطٍ من

ضوء، ترقص على خشبة المسرح وتتلقّف أنغام البيانو باللحظة نفسها.

- آتي إلى هنا كلّ مساء لرؤيتها. - غمغم سانابريا.

- لن يسمحوا للأمور أن تجري على هذا المنوال يا روبرتو. إن لم يختاروني أنا، اختاروا غيري.

- أعرف. وأنا سعيدٌ أنّهم اختاروك أنت.

رحنا نمعن في رقصة الدمية قليلًا، لائذين في جمال حركاتها الفريد من نوعه.

- من يحرّك الخيوط؟ - سألتُ.

اكتفى سانابريا بالابتسام.

غادرنا مسرحَ الظلال قبل الفجر. سرنا في لاس رامبلاس نحو رصيف الميناء، الذي بدا مقبرةً من الصواري والقوارب في عمق الضباب. أراد سانابريا أن يرى البحر للمرّة الأخيرة، حتّى لو اقتصرت المشاهدة على تلك المياه السوداء ذات الأنفاس النتنة التي تلعق أعتاب كاسر الأمواج. وعندما قطع الخطُّ الذهبيُّ المائلُ أفقَ السماء، هزّ سانابريا رأسه واتّجهنا نحو الغرفة التي استأجرها في نزلٍ من الدرجة الثالثة عند مدخل سانتا مادرونا. لم يعد يشعر بالأمان إلّا وسط العاهرات. كان المحلّ عبارةً عن غرفة رطبة ومعتمة، تتمايل تحت المصباح العاري، وليس فيها نوافذ. وثمّة فراشٌ منتوف يحاذي الجدار، وقنّينتان وكؤوس متّسخة لإكمال الأثاث.

- سيأتون إليك يومًا ما. - قال سانابريا.

نظر كلٌّ منّا إلى الآخر وقد سادنا الصمت، لم يعد لدينا ما نقول، فعانقتُه. كانت رائحة الشيخوخة والإرهاق تفوح منه.

- سلِّمْ لي على كانديلا.

أغلقتُ الباب وابتعدتُ في ذلك الممرّ الضيّق، ذي الحيطان التي ترشح عفنًا وحطامًا. وبعد ثوانٍ دوّت فرقعة الطلق الناريّ وجابت الممرّ. أحسستُ بجثّته تسقط على الأرض ولذتُ بهبوط السلالم. كانت إحدى العاهرات العجوزات تراقبني من بابٍ موارب عند مستراح الطابق السفليّ بعينين تترقرقان دمعًا.

تسكّعتُ قرابة الساعتين على غير هدىً في طرقات المدينة الملعونة قبل أن أعود إلى الفندق. وعندما اجتزتُ البهو، رفع موظّف الاستقبال عينيه عن السجلّ بالكاد. ركبتُ المصعد حتّى الطابق الأخير ودلفتُ إلى الممرّ الأيمن الذي ينتهي قبالة باب غرفتي. تساءلتُ إن كانت كانديلا ستصدّقني إن أخبرتُها بأنّي تركتُ سانابريا يرحل، إذ كان صديقنا القديم في تلك اللحظة يسافر على متن باخرةٍ آمنة نحو جهةٍ موثوقة. لعلّ الكذبة دائمًا ما تكون أقرب إلى الحقيقة. فتحتُ باب الغرفة دون أن أشعل الضوء. كانديلا ما تزال هاجعةً فوق الأغطية، وأنفاس الفجر الأولى تلتصق على جسمها العاري. جلستُ على حافة السرير وزحلقتُ أناملي على طول ظهرها. كانت باردةً كالصقيع. وفي تلك اللحظة تحديدًا، انتبهتُ إلى أنّ ما خلته ظلًّا لجسمها ما كان سوى قرنفلةٍ من دمائها المتفشّية على السرير. التفتُّ ببطء فرأيتُ قصبة مسدّس مصوّبةً إلى وجهي من أعتاب الظلمة.

كانت نظّارة المرسال السوداء تلمع على وجهه المرصّع بالعرق. وكان يبتسم.

- السيّد الوزير يبلغك جزيل الشكر على تعاونك الذي لا يُقدَّر بثمن.

- لا يغرَّنّك صمتي.

- هذا زمنٌ عصيب. نحن مطالبون بتقديم تضحيات كبيرة من أجل الوطن يا صديقي.

غطّيتُ جسد كانديلا بالشرشف المخضّب بدمائها.

- لم تخبرني باسمك يومًا. - قلت وأنا أوليه ظهري.

- خورخي. - أجاب المرسال.

التفتُّ على حين غرّة، وكانت شفرة السكّين في يدي أشبَه بقطرة نور. شققتُ بطنه عند رأس معدته. اخترقت الطلقة الأولى من مسدّسه يدي اليسرى. وانفجرت الثانية بتاج أحد أرجل السرير وذرَّتْهُ بشلّالٍ من شظايا دخانيّة. وكانت شفرة السكّين المفضّلة لدى سانابريا تجزّ عنق المرسال آنذاك. رقد أرضًا واختنق بدمائه فيما كانت يداه المغلولتان بالقفّاز تحاولان الحفاظ على وحدة رأسه بصدره بلا أمل. أخرجتُ مسدّسي وأقحمتُه في فمه.

- أنا ليس لديّ أصدقاء.

أخذتُ قطار العودة إلى مدريد في تلك الليلة نفسها. كانت يدي تنزف، والألم مثل شظيّةٍ ناريّة عالقةٍ في الذاكرة. وبالنسبة إلى ما تبقّى، كان الجميع سيحسَبني رجلًا رماديًّا آخرَ في

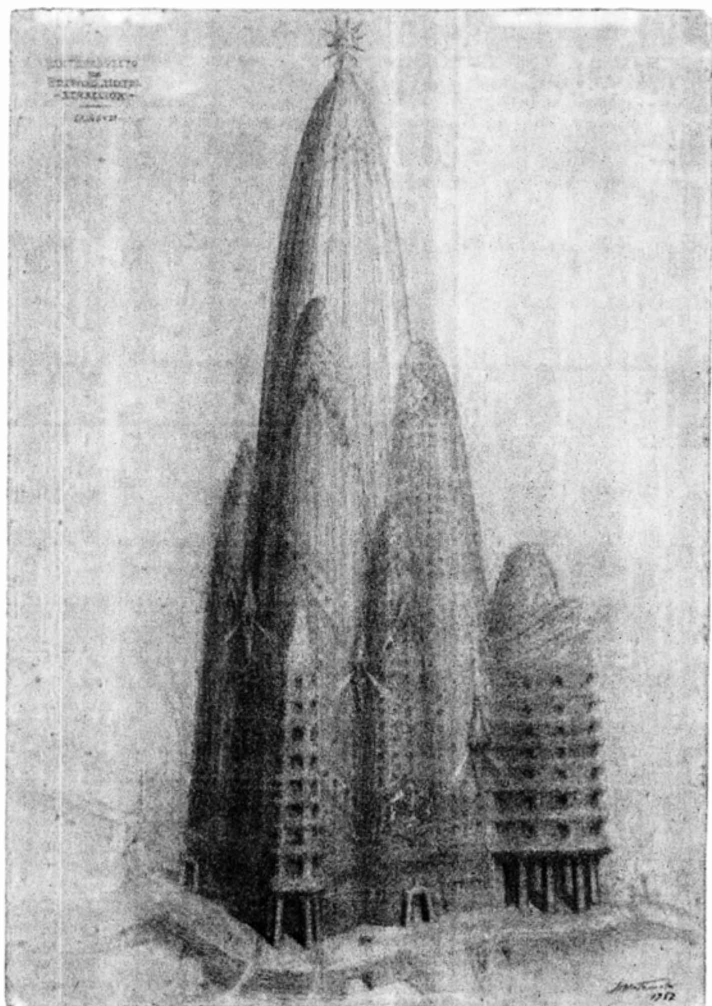
صفوف جوقة الرجال الرماديّين المعلَّقين بخيوطٍ غير مرئيّة تحلّق فوق مشهد الحاضر المسروق. معزولًا في مقصورتي، والمسدّسُ في يدي وعيناي تائهتان في النافذة، تمعّنتُ في تلك الليلة السوداء التي لا تنتهي وهي تنفتح مثل هاويةٍ على أرض الوطن الجريح برمّته. سيكون غضبُ سانابريا غضبي، وجلد كانديلا ضوئي. لن يتوقّف نزيف يدي. ابتسمتُ في سرّي عندما تراءت لي في الفجر سهولُ مدريد الواسعة. بعد دقائق قصيرة ستختفي خطواتي في متاهة المدينة، وتضيع آثارها. وكالعادة، وجّهني مرشدي إلى الطريق، حتّى وهو في غيابه. كنت أعلم أنّ الجرائد ربّما لن تتكلّم عنّي، وأنّ كتب التاريخ ستحاول دفن اسمي بين الخُطَب والأباطيل. لا يهمّ. فنحن الرجال باللون الرماديّ سنصبح أكثر عددًا. وسرعان ما ستجدوننا جالسين بجواركم، في مقهى أو في حافلة، نتصفّح جريدةً أو مجلّة. إذ إنّ ليل الحكاية الطويل قد بدأ ليس إلّا.

امرأةٌ من بخار

لم أعترف بالأمر لأيّ أحدٍ يومًا، لكنّي عثرتُ على الشقّة بمعجزة. كانت لاورا، التي تفوح قبلاتُها بنكهة التانغو، تعمل سكرتيرةً لدى مدير اتّحادات المُلّاك في الطابق الأوّل، شقّة ٢. عرفتُها ذات ليلة من شهر يوليو عندما كانت السماء تستعر بالبخار واليأس. كنت نائمًا في العراء، على أحد مقاعد الساحة، حينما أيقظتني شفاهٌ تلثم وجهي. «هل أنت محتاجٌ إلى مكانٍ تقيم فيه؟». اقتادتني لاورا إلى البوّابة. كان المبنى واحدًا من تلك المدافن العموديّة العملاقة التي تسحر المدينة القديمة، متاهةً من منحوتات نافرة وقطعٍ ترميميّة يُقرَأ على مدخلها تاريخُ الإنشاء ١٨٦٦. تبعتُها عبْر السلالم صعودًا، أكاد لا أرى أمامي. وكانت البناية تطلق صريرًا على وقع خطواتنا كأنّها سفينة قديمة. لم تسألني لاورا عن راتبي أو معارفي. هذا أفضل، ففي السجن لا يمنحونك أيًّا من ذاك. كانت العلّيّة بمساحة زنزانتي، غرفة معلّقةٌ فوق سهوب الأسطح. «سآخذها» قلت. والحقّ يقال إنّني بعد ثلاثة أعوام من السجن فقدتُ حاسّة الشمّ، كما لم أستغرب البتّة من مسألة الأصوات التي ترشح من الجدران. كانت لاورا تصعد

إليّ كلَّ ليلةٍ تقريبًا. وكانت بشرتها الملساء وأنفاسها الضبابيّة هما الشيئين الوحيدين اللذين لا يُحرِقان في ذلك الصيف الجهنّميّ. تنزل لاورا السلالم عند الفجر بهدوءٍ تامّ. وخلال النهار، أستغلّ غيابها لأغفو. وكان الجيران يمتازون بذلك الاحترام اللطيف الناجم عن البؤس. أحصيتُ ستّ عائلات، مكوّنة جميعًا من أولاد وعجّز تميل روائحُهم إلى رواسب الدخان والتربة المحروثة. وكان المفضّل عندي هو الدون فلوريان، الذي يسكن تحتي تمامًا ويعمل في طلاء الدمى حسب الطلب. قضيتُ عدّة أسابيع دون أن أخرج من المبنى، فيما شكّلت العناكب بشباكها زخرفةَ الأرابيسك على بابي. وكانت السيّدة لويسا، التي تسكن في الطابق الثالث، دائمًا ما تصعد إليَّ بشيءٍ يؤكل. وأحيانًا كان الدون فلوريان يعيرني مجلّات ويتّحداني بلعبة الدومينو. ويناديني الأولادُ للعبة الغمّيضة. شعرتُ للمرّة الأولى في حياتي أنّني مرحَّبٌ بي، ومحبوبٌ تقريبًا. وإذا حان منتصف الليل جاءت لاورا بسنواتها التسع عشرة المغلّفة بحريرٍ أبيض لتسمح لي بالممارسة كما لو أنّها المرّة الأخيرة. كنتُ أحبّها حتّى الفجر، وأسدّ رمقي من جسمها بقدر ما سلبته منّي الحياة. ثمّ أحلم بالأبيض والأسود، مثل الكلاب والملاعين. فحتّى ضحايا الحياة الذين على شاكلتي يحصلون على شيء من السعادة في هذا العالم. وفي ذلك الصيف حان دوري. ولكن، عندما جاء موظّفو البلديّة في نهاية أغسطس ظننتُ أنّهم رجال شرطة. قال لي المهندس المشرف على عمليّات الهدم إنّه لا شأن له بالسكّان

المخالفين، لكنّه وبأسفٍ عميقٍ مضطرٌّ إلى هدم البناية بعبوات الديناميت. «لا بدّ أنّ هناك خطأً ما» قلت. كلُّ فصول حياتي تبدأ بتلك العبارة. نزلتُ السلالم راكضًا حتّى وصلتُ إلى مكتب المدير أبحث عن لاورا. فما وجدتُ سوى شمّاعة ملابس ونصف شبر من الغبار. صعدتُ إلى بيت الدون فلوريان. كان فيه خمسون دمية بلا أعين، تتفتّت تحت الظلام. فتّشتُ في البناية كلّها عن جار. كان الصمت يطغى على الممرّات المتكوّمة تحت الأنقاض. «هذه البناية مغلقةٌ منذ العام ١٩٣٩ أيّها الفتى» أعلمني المهندس. «القذيفة التي قتلت السكّان أحدثت أضرارًا في الأساسات لا يمكن إصلاحها». تلاسنّا قليلًا. أعتقد أنّني دفعتُه إلى أسفل السلالم. وكان القاضي هذه المرّة أكثر ارتياحًا. وجدتُ رفاقي القدامى ما زالوا محتفظين بفراشي: «تعود في النهاية دومًا». أطلعني إرنان، العامل في المكتبة، على صفحة الجريدة التي أوردت خبر القصف. كانت الأجساد في الصورة مصفوفةً في صناديق الجثث، وقد شوَّهتهم طلقات الرشّاش، ولكن ما زال التعرّف عليهم ممكنًا. يتناثر كفنٌ دامٍ على البِلاط. لاورا ترتدي ثيابًا بيضاء، ويداها على صدرها المفتوح. لقد مرّ عامان على هذا، لكنّنا في السجن إمّا نحيا أو نموت بالذكريات. يظنّ السجّانون أنّهم دهاة، لكنّ لاورا قادرةٌ على التملّص من المراقبة. توقظني شفتاها في منتصف الليل. تنقل إليَّ تحيّات الدون فلوريان والآخرين. «ستبقى تحبّني إلى الأبد، صحيح؟» وأنا أقول لها نعم.



غاودي في مانهاتن

بعد عدّة أعوام، عندما كنتُ أتأمّل الموكب الجنائزيّ لمعلّمي سائرًا في جادّة دي غراثيا، تذكّرتُ العامَ الذي عرفتُ فيه غاودي وتغيّر مصيري إلى الأبد. كنتُ قد وصلتُ إلى برشلونة في ذلك الخريف لدخول مدرسة العمارة. وكانت أحلامي في غزو مدينة المعماريّين تعتمد على منحةٍ دراسيّة بالكاد تغطّي نفقات التسجيل واستئجار غرفةٍ في نُزلٍ في شارع دل كارمن. وخلافًا لرفاق دراستي الذين يوحون بأنّهم سادةٌ نبلاء، اقتصر مفهوم الأبّهة عندي على بدلةٍ سوداء ورثتُها عن والدي وكانت أكبر من مقاسي خمسة أضعاف، وأقصر من الضروريّ بمقاسين. وفي مارس عام ١٩٠٨، استدعاني المشرفُ عليّ، الدون خاومي موسكاردو، إلى مكتبه لتقييم وضعي الدراسيّ، ومظهري المشؤوم بحسب ما تبيّن لي.

- تبدو متشرّدًا يا ميراندا. - أفصَحَ - اللباس لا يصنع الراهب، لكنّ المهندس المعماريّ شأنٌ آخر. إن كان الأمر متعلّقًا بنقصٍ في الدخل، فربّما يمكنني مساعدتك. يشاع عنك

بين الأساتذة أنّك شابٌّ نبيه. قل لي، ما الذي تعرفه عن غاودي؟

«غاودي». كان مجرّد ذكر هذا الاسم يصيبني بالقشعريرة. فلقد نشأتُ وأنا أحلم بتصاميم قبابه المستحيلة، وصخوره العملاقة ذات الطابع القوطيّ الحديث، وبدائيّته المستقبليّة. غاودي كان وراء رغبتي في أن أصبح معماريًّا. وكانت أقصى تطلُّعاتي، ناهيك بالموت من المجاعة خلال دراسة الهندسة، هو أن أتمكّنَ يومًا من تشرُّبِ ملمترٍ واحدٍ من الرياضيّات الشيطانيّة التي اعتمدها في إبداعاته؛ هذا المعماريُّ، ابنُ مدينة ريوس، الذي جسَّدَ في ناظريَّ أسطورة بروميثيوس المعاصر.

- إنّني أعظم المعجبين به. - هذا ما استطعتُ الردّ به.

- خشيتُ ذلك.

لمستُ في نبرته تدرُّجًا في التشامخ الذي كان سائدًا حينذاك في الحديث عن غاودي. كانت الأجراس تقرع في كلّ مكان رنينَ الحِداد على وفاة ما كان بعضهم يسمّيه حداثة، ويعتبره آخرون ببساطةٍ إهانةً بحقّ الذوق السليم. وكانت الطليعة الجديدة تؤسّس مذهبًا في الماهويّة، بالتشديد على أنّ تلك الواجهات الباروكيّة والمثيرة للهذيان والتي ستشكِّل مع مرور الأعوام وجهَ المدينة لا بدّ أن تكون مصلوبةً على الملأ. وبدأ صيت غاودي يذيع بوصفه مجنونًا صِداميًّا وأعزب، متنوّرًا يحتقر المال (هذه إحدى جرائمه التي لا تُغتَفر)، لا يشغله هوسٌ إلّا بتشييد كاتدرائيّة عجائبيّة يقضي معظم وقته في سردابها، بزيٍّ

الشحّاذ، يدبِّر مخطّطاتٍ تتحدّى علم المساحة، ومتيقّنًا من أنّ زبونه الوحيد هو الربّ العليّ.

- غاودي فَقَدَ صوابه. - تابع موسكاردو - يريد الآن أن ينصب تمثالًا للعذراء، بحجم تمثال رودس العملاق، على سطح بيت ميلا، في وسط جادّة دي غراثيا. عجبًا، عجبًا، شيءٌ لا يُصدَّق. ولكن، بمعزلٍ عن كونه مجنونًا من عدمه، والأمر يبقى سرًّا بيننا، لم ولن يولد معماريٌّ مثله أبدًا.

- وهذا ما أفكّر فيه أنا أيضًا. - ارتجلتُ.

- فأنت تعرف مسبقًا أنّه من غير المجدي أن تصبح خليفته.

قرأ الأستاذُ الجامعيُّ النبيلُ الأسف في نظرتي.

- ولكن بوسعك أن تصبح مساعده. قال لي واحدٌ من آل يمونا إنّ غاودي في حاجةٍ إلى مَن يتحدّث الإنكليزيّة، لا تسألني لماذا. إنّه يبحث عن مترجمٍ فوريٍّ قشتاليّ، لأنّه أحمق ويرفض التحدّث بلغاتٍ أخرى ما عدا الكاتالونيّة، لاسيّما عندما يقدِّمون له وزراء وأدواق وأمراء. فتطوّعتُ للبحث عن مرشّح. ***دو يو سبيك إنغلش***، يا ميراندا؟

مضغتُ ريقي واستحضرتُ مكيافيلّي، قدّيس القرارات المتسرّعة وراعيها.

- *آ ليتل*.

- *كونغراتوليشنز* إذاً، وليوفّقك الربّ في هذه المهمّة.

وفي ظهيرة اليوم نفسه، قُبَيْلَ الغروب، هممتُ بالمسير نحو كاتدرائيّة الساغرادا فاميليا، التي كان غاودي يتّخذ سردابها مكتبًا

له. كانت منطقة إنسانتشي في تلك السنوات تتجزّأ على مستوى ممشى سان خوان. وينبسط ما وراءها سرابٌ من حقولٍ ومصانع ومبانٍ معزولة تنهض كالحرّاس المنفردين في عقدة برشلونة الموعودة. وبعد قليل، تبدّت أبراجُ حنية المعبد مخروطيّةُ الشكل في الغسق، مثل خناجر تطعن السماء الخمريّة. كان هناك حارسٌ في انتظاري عند مدخل الورشة يحمل مصباحًا غازيًّا. تبعتُه تحت القناطر والأقواس حتّى وصلنا الأعتاب التي تهبط إلى مختبر غاودي. ولجتُ السرداب وقلبي ينبض في صدغيَّ. ثمّة حديقةٌ من مخلوقات خرافيّة تتمايل في الظلّ. وفي وسط المكتب، أربعة هياكل عظميّة تتدلّى من القبّة وتؤدّي رقصةً مرعبة لدراسات علم التشريح. وتحت تلك الآليّات الشبحيّة، وجدتُ رجلًا صغير البنية ذا شعر أبيض وعينين زرقاوين لم أشهد مثل لونهما في حياتي، وله نظرة مَن يرى ما لا يستطيع الآخرون رؤيته إلّا بالأحلام. ترك الدفتر الذي كان يخطّط عليه شيئًا مّا وابتسم لي. له ابتسامة طفل، مفعمةٌ بالسحر والألغاز.

- لا بدّ أنّ موسكاردو أخبرك بأنّي أحمق ولا أتحدّث الإسبانيّة إطلاقًا. من جهة المخاطبة، فأنا أجيد ذلك، حتّى لو كان الغرض مخالفة الجماعة. أمّا اللغة التي لا أجيدها فهي الإنكليزيّة، وسأنطلق إلى نيويورك يوم السبت هذا. ***وأنت تتحدّث الإنكليزيّة جيّدًا، أليس كذلك أيّها الفتى***[1]؟

---

(١) وردت العبارة بالكاتالونيّة في النصّ الأصليّ. (المترجم).

في ذلك المساء شعرتُ أنّني أسعد البشر حظًّا في الكون إذ قاسمتُ غاودي الحوارَ ونصفَ عشائه: حفنةٌ من الجوز وأوراق الخسّ بزيت الزيتون.

- هل تعرف ما ناطحة السحاب؟

وبسبب شحّ الخبرة الشخصيّة في هذا المجال، ذررتُ المفاهيم التي كانوا يعلِّمونا إيّاها في الكليّة حول مدرسة شيكاغو، هياكل الألومينيوم والاختراعات التاريخيّة، ومصاعد أوتيس.

- ترّهات. - قاطعني غاودي - ناطحة السحاب هي مجرّد كاتدرائيّةٍ صُمِّمَتْ لأناسٍ يؤمنون بالمال بدلًا من الإيمان بالربّ.

وهكذا عرفتُ أنّ غاودي تلقّى عرضًا من شخصيّةٍ بارزة لتشييد ناطحة سحاب في وسط جزيرة مانهاتن، وأنّ وظيفتي ستكون الترجمة الفوريّة في المقابلة التي ستُجرى خلال بضعة أسابيع في والدروف أستوريا بين غاودي والشخصيّة البارزة الملغَّزة. فأمضيتُ الأيّام الثلاثة اللاحقة منغلقًا على نفسي في النزل لمراجعة قواعد الإنكليزيّة كالممسوس. وفي يوم الجمعة، عند الفجر، ركبنا القطار المتّجه إلى كاليه، حيث سنعبر المانش للوصول إلى ساوثامبتون والصعود على متن اللوسيتانيا. وما إن ركبنا السفينة، انكفأ غاودي في الكابينة مسمومًا بالحنين إلى دياره. ولم يخرج منها قبل غروب الشمس في اليوم التالي، إذ وجدتُه جالسًا على مقدّمة السفينة يتأمّل الشمس وهي تنزف في أفقٍ مشتعلٍ بالياقوت والنحاس. «***هذه هي العمارة الحقّة،***

المكوّنة من البخار والنور. إذا أردتَ أن تتعلّم، فعليك بدراسة الطبيعة[1]». تحوّلت الرحلة عندي إلى درس مكثَّفٍ ومذهل. كنّا نتمشّى على السطح كلّ ظهيرة ونتحدّث عن المشاريع والأحلام، وعن الحياة أيضًا. ونظرًا لعدم وجود صحبة أخرى، وربّما قد انتبه إلى الوقار الدينيّ الذي ألهمني إيّاه، عرض غاودي عليّ صداقته وأطلعني على مسوّدات ناطحة السحاب التي عزم على تصميمها، كأنّها برجٌ مخروطيٌّ من تأليف الموسيقار فاغنر، ولو تحوّلت إلى حقيقة لكانت أروع ما بنته يدُ إنسان. كانت أفكار غاودي تحبس الأنفاس، ورغم هذا لم أستطع إلّا أن ألاحظ غياب الدفء أو الاهتمام في صوته وهو يتحدّث عن المشروع. وفي الليلة السابقة لوصولنا، جازفتُ في طرح السؤال الذي كان ينهشني منذ أن انطلقنا: لماذا أراد البدء بمشروعٍ قد يستغرق منه أشهرًا، أو أعوامًا، بعيدًا عن وطنه ولا سيّما عن العمل الذي صار غايته في الحياة؟ «***من أجل القيام بعمل الربّ، نحتاج إلى يد الشيطان أحيانًا***[2]». اعترف لي حينذاك أنّه وافق على تشييد ذلك البرج البابليّ في قلب مانهاتن، لكي يلتزم زبونه بدفع تكاليف إتمام الساغرادا فاميليا. ما زلتُ أذكر كلماته: «***الربّ ليس مستعجلًا، لكنّي لن أعيش إلى الأبد...***[3]».

---

(١) بالكاتالونيّة في الأصل. (المترجم).
(٢) بالكاتالونيّة في الأصل. (المترجم).
(٣) بالكاتالونيّة في الأصل. (المترجم).

وصلنا إلى نيويورك عند المغيب. وكان الضباب البغيض يزحف بين ناطحات سحاب مانهاتن، والمدينة الضخمة هائمة في مهبّ الريح تحت سماءٍ أرجوانيّة تلوِّح بالعاصفة وريح الكبريت. كانت هناك عربةٌ سوداء في انتظارنا عند أرصفة تشيلسي، اقتادتنا عبْر أخاديد مظلمة نحو وسط المدينة. وكانت دوّامات البخار تنبعث من بِلاط الطريق، وأسراب الترام والعربات والروبوتات الصاخبة تجوب بانفعالٍ شديدٍ تلك المدينةَ الحافلةَ بخلايا النحل الجهنّميّة والمكوّمة على أماكن السكن الخرافيّة. كان غاودي يراقب المشهد بنظرةٍ متجهّمة. وكانت سكاكين الضوء النازف تمزّق المدينة من بين السحاب حين دلفنا إلى الجادّة الخامسة وتراءى لنا طيف والدورف أستوريا، الصرح المكوّن من الشرفات والأبراج الضخمة الذي سيُبنى على أنقاضه الإمباير ستيت بيلدينغ بعد قرابة العشرين عامًا. أقبَلَ المدير ليرحّب بنا شخصيًّا وأبلغنا أنّ الشخصيّة البارزة ستستقبلنا بعد حلول الظلام. كنت أترجم فوريًّا، فيما يقتصر غاودي على هزّ رأسه. صحبنا إلى غرفة فاخرة في الطابق السادس حيث الإطلالة على المدينة كلّها وهي تغرق في الغسق.

أعطيتُ الحمّالَ إكراميّةً وافرة فاكتشفتُ بذلك أنّ زبوننا يعيش في جناحٍ في الطابق الأخير ولا يخرج من الفندق أبدًا. وعندما سألتُه أيَّ شخصٍ هو وما مظهره، أجابني أنّه لم يره مطلقًا ومضى في سبيله. حانت ساعة موعدنا، نهض غاودي وتوجّه إليّ بنظرةٍ مهمومة. كان موظّف المصاعد بزيّه القرمزيّ

ينتظرنا في نهاية الممرّ. وبينما كنّا صاعدين، لاحظتُ أنّ وجه غاودي يزداد شحوبًا، وبات بالكاد قادرًا على حمل الملفّ الذي يحتوي على المسوّدات.

وصلنا إلى ردهةٍ رخاميّة ينفتح قبالتها ممرٌّ طويل. أغلق الموظّفُ الأبوابَ خلف ظهرنا وغاص ضوء المصعد في الأعماق. وفي تلك اللحظة رأيتُ شعلة شمعةٍ تتقدّم نحونا على امتداد الممرّ. كانت بيد شخصٍ رشيق يرتدي ثيابًا بيضاء. الشعر الأسود الطويل يحيط بوجهٍ لا أذكر أنّي رأيتُ مثل نصاعته من قبل، وعينان زرقاوان تخترقان الروح. عينان مطابقتان لعيني غاودي.

- Welcome to New York.

زبوننا امرأة. امرأةٌ شابّة، جمالها مقلق، وكثرة التمعُّن فيه تسبّب الألم أو تكاد. لو رآها مؤرّخٌ فيكتوريّ لوصفها بأنّها ملاك، لكنّي لم ألحظ في حضورها أيّ ملمحٍ ملائكيّ. تمشي كالقطط، وتبتسم كالزواحف. اقتادتنا السيّدة إلى صالةٍ تعمّ فيها العتمة والستائر التي تتوهّج إثر وميض الإعصار. جلسنا. استعرض غاودي مسوّداته واحدةً تلو أخرى، بينما كنتُ أترجم تفسيراته. وبعد ساعة، دامت أبد الدهر، حدّقت إليّ السيّدة، لعقت شفتيها وما عليهما من حمرة، واقترحت أنّه ينبغي لي أن أتركهما بمفردهما عند ذلك الحدّ. نظرتُ إلى معلّمي خلسةً. فأومأ وكان رابط الجأش.

نازعتُ غرائزي، وانصعتُ لأمرها وابتعدتُ نحو الممرّ،

حيث كان المصعد يفتح أبوابه. توقّفتُ برهةً لأنظر خلفي فرأيتُ أنّ السيّدة تنحني على غاودي، وتمسك وجهه بيديها برقّةٍ لا نظير لها، وتقبِّله على شفتيه. وفي تلك اللحظة تمامًا، انبلج برقٌ هائلٌ في الظلّ، وبدا لي لوهلةٍ أنّ غاودي لم يكن بجانب امرأة، إنّما طيفٌ قاتمٌ وجُثَيّ، يحنو على كلبٍ أسود كبير الحجم يقعى عند قدميه. وآخِرُ ما لاحظتُه قبل أن تنغلق أبواب المصعد هو الدموع التي على وجه غاودي، دموعٌ متأجّجة كاللآلئ المسمومة. عدتُ إلى الغرفة، استلقيتُ على السرير وذهني يخنقه الغثيان، وسلّمتُ نفسي لنومٍ أعمى.

وحالما لامست أولى خيوط الضوء وجهي، هُرِعتُ إلى غرفة غاودي. كان السرير كأنْ لم تمسّه يد، ولا أثر للمعلّم. نزلتُ إلى مكتب الاستقبال لأسأل إن كان أحدهم يعرف شيئًا عنه. فقال لي البوّاب إنّه رآه قبل ساعة يخرج لتضيع خطاه في الجادّة الخامسة، حيث كاد الترام يدهسه. لا أعرف كيف أشرح السبب جيّدًا، لكنّي فهمتُ بالضبط أين بوسعي العثور عليه. سرتُ على امتداد عشر كتل سكنيّة حتّى وصلتُ إلى كاتدرائيّة سان باتريك، المقفرة في تلك الساعة من الصباح.

تراءى لي شخص المعلّم من عتبة الرواق، جاثيًا على ركبتيه عند المذبح. اقتربتُ وجلستُ بجانبه. بدا لي أنّ وجهه قد شاخ عشرين عامًا في ليلةٍ واحدة، واتّسم بملامح الغياب التي سترافقه حتّى آخر يومٍ من عمره. سألتُه مَن تكون تلك المرأة. نظر إليّ مرتبكًا. ففهمتُ حينذاك أنّني أنا الوحيد الذي رأيتُ

المرأة ذات اللباس الأبيض، ومع أنّي لا أغامر في تخيُّل ما رآه غاودي، فإنّني كنت على يقينٍ من أنّ نظرته لم تكن مختلفة عن نظرتي. ركبنا السفينة للعودة إلى الديار في ظهيرة ذلك اليوم نفسه. كنّا نرنو إلى نيويورك وهي تتلاشى في المدى عندما أخرج غاودي الملفّ بمسوّداته وألقاه في البحر. ارتعدتُ وسألتُه ما الذي كان سيحلّ بالتمويل الضروريّ لإتمام أعمال الساغرادا فاميليا. «***الربّ ليس مستعجلًا وأنا لا أستطيع دفع الثمن المطلوب منّي***[1]».

سألتُه ألف مرّة خلال الرحلة: ما ذلك الثمن؟ وما هويّة الزبون الذي التقيناه؟ ابتسم لي ألف مرّة، مجهَدًا، يهزّ رأسه نافيًا ويلتزم الصمت. حين وصلنا إلى برشلونة، انعدمت أسباب عملي مترجمًا فوريًّا، لكنّ غاودي دعاني إلى زيارته كلّما وددتُ. عدتُ إلى روتين الكليّة، حيث كان موسكاردو متلهّفًا لمعرفة ما جرى.

– نزلنا في مانشستر لزيارة مصنعٍ لمسامير البرشام، لكنّنا عدنا قبل ثلاثة أيّام لأنّ غاودي يقول إنّ البريطانيّين لا يأكلون سوى لحم البقر المسلوق ويستاؤون من العذراء.

– عجبًا، عجبًا، شيءٌ لا يُصدَّق.

*

(١) بالكاتالونيّة في الأصل. (المترجم).

وبعد مرور مدّة، في إحدى زياراتي للمعبد، كنتُ أمعن النظر في قوصرةٍ فاكتشفتُ وجهًا مطابقًا لتلك السيّدة ذات اللباس الأبيض. كان طيفُها، المنقوشُ في دوّامةٍ من الثعابين، يوحي بملاكٍ ذي جناحين باتِرَين، يضجّ بالنور والقسوة. لم نتحدّث غاودي وأنا عمّا حدث في نيويورك أبدًا. كانت تلك الرحلة ستبقى سرَّنا. أصبحتُ مع الأعوام معماريًّا مقبولًا، وحصلتُ بفضل وساطة معلّمي على عملٍ في مكتب هيكتور غيمار في باريس. هناك حيث تلقّيتُ نبأ وفاة غاودي، بعد عشرين عامًا من سهرة مانهاتن تلك. أخذتُ أوّل قطارٍ متّجهٍ إلى برشلونة، وبالكاد أسعفني الوقت لرؤية الموكب الجنائزيّ سائرًا به نحو مدفنه في السرداب الذي عرفتُه فيه تحديدًا. أرسلتُ استقالتي إلى غيمار في ذلك اليوم نفسه. وعند مغيب الشمس مشيتُ على ذات الخطى التي حملتني إلى الساغرادا فاميليا من أجل لقائي الأوّل بغاودي. كانت المدينة تعانق سياج الورشات، ويرتقي طيفُ المعبد نحو سماءٍ نازفةٍ بالنجوم. أغمضتُ عينيّ، وتراءت لي الكاتدرائيّة لوهلةٍ عابرةٍ أنّها قد أُنجِزَتْ تمامًا مثلما كان رآها غاودي في مخيّلته. وعرفتُ آنذاك أنّني سأكرّس حياتي لإكمال مشروع معلّمي، مدركًا أنّني شئتُ أم أبيتُ سيتعيَّن عليّ أن أسلِّم زمام العمل لآخرين يأتون من بعدي ليسلِّموا الزمام بدورهم لمن يأتي من بعدهم. ذلك أنّ غاودي، حيثما كان، ما يزال ينتظر، حتّى لو أنّ الربّ ليس مستعجلًا.

القيامة في دقيقتين

في اليوم الذي انتهى فيه العالم صادفتني عند تقاطع الجادّة الخامسة بالجادّة السابعة والخمسين، بينما كنت أمعن النظر في الجوّال. صهباءُ، ذات عينين فضّيّتين، التفتت نحوي وقالت لي:

- ألم تلاحظ أنّه كلّما ازداد الجوّال ذكاءً، ازداد الإنسان غباءً؟

كانت تبدو واحدةً من زوجات دراكولا بعد أن أفرغت كلَّ شيءٍ من متجرٍ لبيع الأغراض القوطيّة.

- هل يمكنني مساعدتكِ يا آنسة؟

قالت إنّ العالم بات على بُعد خطوةٍ من النهاية. أصدرت الدوائرُ القضائيّةُ السماويّةُ أمرًا بالانسحاب جرّاء خللٍ في الأداء، في حين كانت هي تعُدُّ نفسها ملاكًا ساقطًا ومبعثًا من تحت الأرض لكي يساعد الأرواحَ البائسة مثل روحي على السير بانضباطٍ نحو الحلقة العاشرة من الجحيم.

- كنتُ أظنّ أنّها تسع حلقات فقط هناك في أسفل. - أجبتُ.

- تعيَّنَ علينا إضافة حلقةٍ أخرى لجميع أولئك الذي عاشوا حياتهم كما لو أنّهم خالدون إلى الأبد.

لم أحمل علاجاتي الطبيّة محمل الجدّ يومًا، لكنّي بمجرّد إلقاء نظرة على تينك العينين الفضّيّتين عرفتُ أنّها تنطق بالحقيقة. وإذ انتهبت إلى يأسي، واستنادًا إلى أنّي لم أعمل في القطاع الماليّ، أعلنت أنّها تتيح لي اختيار ثلاث أمنيات قبل أن يلتفّ الانفجارُ العظيمُ على نفسه وأن ينفجر الكونُ ليعود مثلما كان أصغر من حبّة حُمّص.

- اختر بتعقُّل.

فكّرتُ قليلًا.

- أريد أن أعرف معنى الحياة. أريد أن أعرف أين أجد أفضل بوظة بالشوكولاتة. وأريد أن أقع في الغرام.

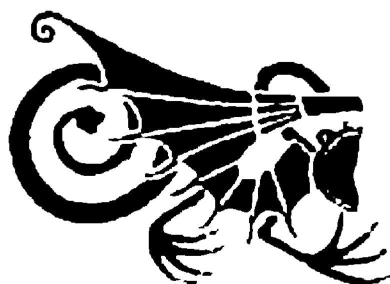
- الجواب على الأمنيتين الأوّلين هو نفسه.

أمّا بخصوص الأمنية الثالثة، فأعطتني قبلةً بنكهة كلّ حقيقة الدنيا جعلتني أتمنّى أن أكون رجلًا صالحًا. تجوّلنا جولة الوداع في المنتزه، ثمّ ركبنا مصعدًا للارتقاء إلى قمّة الفندق المهيب ذي التيجان القوطيّة الكائن في الطرف الآخر من الشارع، حيث رأينا مِن عُلاه رحيلَ العالم على أوسع نطاق.

- أحبّكِ. - قلت.

- أعرف.

وبقينا هناك، يدًا بيد، نشاهد كيف تتدحرج السُّحُبُ القرمزيّة لتدثِّر السماء. وحين أحسستُ في النهاية أنّي سعيد، بكيتُ.



المصادر

«بلانكا والوداع»، «بلا اسم»، «فتاةٌ من برشلونة»: تصدر هذه القصص للمرّة الأولى.

«وردة النار» صدرت في مجلّة «Magazine» عام ٢٠١٢.

«أمير بارناسوس» صدرت ضمن طبعةٍ غير تجاريّة عن منشورات بلانيتا عام ٢٠١٢.

«أسطورةٌ من أجواء الميلاد» صدرت في صحيفة «La Vanguardia» عام ٢٠٠٤ وعام ٢٠٢٠.

«غاودي في مانهاتن» صدرت في صحيفة «La Vanguardia» عام ٢٠٠٢ وعام ٢٠٢٠. وكانت جزءًا من العمل المعنون «امرأةٌ من بخار» الصادر عن منشورات بلانيتا ضمن طبعةٍ غير تجاريّة، عام ٢٠٠٥، بجانب قصّة «امرأةٌ من بخار».

«أليثيا، عند الفجر» صدرت ضمن طبعةٍ غير تجاريّة عن منشورات بلانيتا عام ٢٠٠٨، بجانب «رجالٌ باللون الرماديّ».

«امرأةٌ من بخار» هي عنوان العمل الذي يحمل الاسم ذاته، صادر عن منشورات بلانيتا ضمن طبعةٍ غير تجاريّة، عام ٢٠٠٥، بجانب «غاودي في مانهاتن».

«القيامة في دقيقتين» قُرِأت هذه القصّة في The Cultivating Thought Autors Series»، عن منشورات شبتول، التي يديرها جوناثان سافران فوير. ترجمها عن الإنكليزيّة ألكس غوارديا فرذييل.

وقد صدرت كلٌّ من «امرأةٌ من بخار»، «غاودي في مانهاتن»، «أسطورةٌ من أجواء الميلاد»، «أليثيا، عند الفجر» ضمن «Barcelona Gothtic» بسلسلة «حكاياتٌ للمطالعة في رحلة قطار»، عام ٢٠٠٨ عبْر مشروع «Libros de Vanguardia» الذي قدَّم له سرخيو بيلا-سانخوان.

الصور

ص ١٤ : بوّابة السلام، برشلونة، أواخر الأربعينات. © مارتي غازول ي كورال.

ص ٤٦ : ساحة سانت أوغوستي بيل. © أوتّو يويد، مجموعة خاصّة، بتنازلٍ مشكور من س. مارتينز.

ص١٤٠ : خريطة برشلونة في أواخر القرن السادس عشر. © ألفار سالوم.

ص١٤٨ : شارع لايتانا على مستوى خونكيريس وكوندال، برشلونة، ١٩٥٣. © مجموعة فوتوغرافيّة ف. كاتالا-روكا، الأرشيف التاريخي لرابطة المعماريّين الكاتالونيّين.

ص ١٨٦ : تخطيط مبدئي لمبنى أتراكشن هوتيل في مانهاتن (١٩٥٢)، خوان ماتامالا فلوتاتس. © كاتدرائيّة غاودي. المدرسة التقنيّة العليا للعمارة في برشلونة. جامعة العلوم التطبيقيّة في كاتالونيا.

ص ٢٠٥ : الرسم مستوحى من التنّين الموجود على باب منزل غويل، لأنطوني غاودي (بيدرالبس، برشلونة).

مارتي غازول ي كورال (برشلونة، ١٩١٩-١٩٩٤) يشكِّل جزءًا من التقاليد العريقة للمصوّرين البرشلونيّين ما بعد الحرب العالميّة الثانية. ولم يُكشَف عن أعماله الشخصيّة إلّا مؤخّرًا.

قيل في روايات ثافون

«إنّ رواية *ظلّ الريح* تؤسّس لظاهرةٍ في الأدب الإسبانيّ الشعبيّ».

La Vanguardia

«هي واحدةٌ من تلك الحكايات النادرة التي تصيغ حبكةً باهرةً بأسلوبٍ سرديّ رفيع».

Sunday Times

«*ظلّ الريح* تحفةٌ أدبيّةٌ شعبيّة، بل إنّها عملٌ كلاسيكيٌّ معاصر».

Daily Telegraph

«أفضل كتابٍ لهذا العام. روايةٌ لا تُقاوَم. حصلت في زمنٍ قصير على ثناءٍ شامل في جميع أنحاء العالم. تندرج تحت نمط روايات النشوء، وتتضمّن من الأسرار والخفايا ما يجعلها مغويةً مثل دمى الماتريوشكا الروسيّة».

Le Figaro

«استطاع ثافون أن يجمع بين غارسيا ماركيز وأمبرتو إيكو وخورخي لويس بورخيس في مشهدٍ ساحرٍ ومعقّد، ببراعةٍ ثاقبةٍ وكتابةٍ عجيبة».

The New York Times

«*ظلّ الريح* روايةٌ عجيبة. إنشاءٌ منطقيٌّ في منتهى الدقّة والإحكام، يثبت مهارةً فريدةً من نوعها في الكتابة... هي رسالة حبٍّ للأدب، موجَّهةً إلى القرّاء المولعين بالسرد مثلما هو عليه بطلُ الرواية الشابّ».

Entertainment Weekly

«مَن كان يفكّر أنّ الرواية القوطيّة الأصيلة قد اندثرت في القرن التاسع عشر، فإنّ هذا الكتاب سيجعله يغيّر فكرته. روايةٌ مليئةٌ بالروعة والفخاخ السرّيّة حيث كلُّ قصّةٍ فيها تحتوي على قصّةٍ أخرى. كلُّ المشاهد في يدي ثافون تبدو أنّها خارجةٌ من أولى أفلام أورسون ويليز. يجب أن تكون رومانسيًّا حقيقيًّا لتقدير قيمتها كاملةً، وإذا كنتَ كذلك فتأكّد من أنّك ستنغمس في قراءةٍ مبهرة».

Stephen King

«إنّ الصفحات التي يكتبها رويث ثافون تُقرأ في غضون يومين حالما يقرّر القارئ البدء بها. إذ إنّ هذا الرجل يتفرّد بموهبةٍ سرديّةٍ كاسحة».

El Mundo

«ها نحن نعثر مرّةً أخرى على كتابٍ يبيّن كم من الممتع الانغماس في روايةٍ طويلةٍ وثريّة... تحتوي هذه الرواية على كلّ شيء: إغواء، مخاطرة، انتقام، ولغزٌ يحيكه المؤلّف ببراعةٍ مذهلة. يبدو أنّ ثافون يتفوّق حتّى على الروائيّ الاستثنائيّ تشارلز ديكنز».

The Philadelphia Enquirer

«سحرٌ خالص، ما من وصفٍ آخر لهذه الرواية. الحكاية والكتابة، الحبكة والشخصيّات، الأشكال والمظاهر، كلٌّ بمقداره المناسب. لا يمكنك إلّا أن تكمل قراءة هذه الصفحات الخمسمئة الآسرة، والمليئة بالتشويق. أسلوبه مميّز مثل رائحة عطرٍ ملؤه إغواءٌ وجاذبيّة. رائحةٌ تدوم طويلًا».

Hamburger Abendblatt

«جيّدةٌ للغاية... الحكاية دائريّةٌ بشكلٍ مذهل حقًّا. ثمّ إنّ عناصر السخرية، والرعب، والسياسة، والرومانسيّة متناسبةُ المقدار... والنتيجة العامّة مرضيةٌ تمامًا. ثافون، كاتب

السيناريو سابقًا، بارعٌ في التباين والإيقاع: كتابٌ يزيد عن أربعمئة صفحة، ورغم هذا يُقرَأ بسرعةٍ لا تُصدَّق».

Sunday Telegraph

«كلُّ ما تحتويه رواية *ظلّ الريح* يرضي القارئ بصورةٍ استثنائيّة. الأسلوب المدهش، والحبكة المتلاحمة والمتباينة بلمسة فنّان... الجميل في رواية ثافون أجواؤها وقوّة جاذبيّتها. يُنصَح بها وبشدّة».

The Observer

«كلُّ الذين تستهويهم روايات الرعب، والروايات البطوليّة، والعاطفيّة، والمأساويّة، والتشويقيّة، لا بدّ لهم أن يركضوا إلى أقرب مكتبةٍ للحصول على نسخةٍ من *ظلّ الريح*. يجب أن يفعلوها، حقًّا».

The Washington Post

«عملٌ طموح، يمتاز بالجمع بين أنماطٍ أدبيّة مختلفة (بدءًا من كوميديا الأخلاق وحتّى التوثيق التاريخيّ، مرورًا باللغز المحوريّ ذاته) من دون أن يفقد ذرّة واحدة من قدرته على الإثارة».

Qué Leer

«آسرةٌ، خياليّةٌ ومبنيّةٌ على أسس متينة. روايةٌ تعكس متعة استعادة المراهق الأبديّ، الذي نمتلكه جميعًا في دواخلنا، عن طريق القراءة».

El Periódico

«رواية ***ظلّ الريح*** تحتوي على كلّ ما تحتاج إليه الحكاية العظيمة: حبّ، خيانة، موت، حقد وصداقة. ليس من المستغرب أنّها غدت كتاب العام بلا منازع».

Berlin Literature Critique

«كارلوس رويث ثافون حكّاءٌ رائع».

Margaret Atwood

«أعلن بسرورٍ كبيرٍ أنّ ***لعبة الملاك*** روايةٌ عظيمة، فائقة الجودة، وأفضل من سابقتها. إنّها أشدّ قوّةً وصلابةً وتأجُّجًا ممّا استهلّ به الكاتب مسيرته الأدبيّة المميّزة. أمتعتني كثيرًا وأسرتني في ذلك القلق المحبّب طوال وقت قراءتها. أعلن أنّ لقب ديكنز البرشلونيّ يليق بثافون، أكثر الأدباء موهبةً بالفنّ السرديّ في عصرنا الحاليّ».

Corriere della Sera

«يسجِّل ثافون اسمه بجدارة ما بين أدباء القرن التاسع عشر الكلاسيكيّين، الذين يمثّلهم ديكنز خير تمثيل، والذين ينجحون في الوصول إلى الجمهور العريض في اللحظة ذاتها التي يبدعون فيها أعمالًا تتّسم بالتأثير المستمرّ. ترتكز **_لعبة الملاك_** على نموذج أدب الرعب السائد في القرن التاسع عشر، وبصرف النظر عن كثافة حبكتها الدراميّة، فإنّها تقدّم تعليقًا لامعًا لتيّارٍ أدبيّ برمّته».

Frankfurter Allgemeine Sonntagszeitung

«أحيا كارلوس رويث ثافون معنى أن يكون الكاتب عظيمًا. قدرته الحالمة على قصّ الحكايات هي نمطٌ أدبيٌّ في حدّ ذاته».

USA Today

«مثلما استطاع مؤلّف الدون كيخوته تركيز انتباهه على الرواية الفروسيّة، يلعب رويث ثافون على حبال الأنماط الشعبيّة الراهنة. والنتيجة هي نصٌّ يخطف القارئ، ويقتاده إلى صفحةٍ تحتوي على لغزٍ سيعثر على حلّه في الصفحة التالية (والتي بدورها تحتوي على لغزٍ جديد، وهلمّ جرًّا)».

Deutschlandradio Kultur

«مبادرته جريئة، وجادّة ومثيرة للإعجاب. تعامله مع تاريخ إسبانيا المروّع في القرن العشرين يستدعي الاهتمام بقدر ما تستدعيه براعته الأدبيّة. لا شيء من كلّ هذا التراث محصورٌ في مدينة واحدة، إنّه تراثٌ للإنسانيّة جمعاء».

The Times

«مرّةً أخرى يمتعنا بلغته الثريّة والسلسلة على حدٍّ سواء، بحيث يصعب الإفلات من سحرها».

Die Welt

«يستعيد ثافون بعض المناظر المدنيّة المفضّلة من مدينة برشلونة العتيقة. هذه الرواية، على الرغم من إكمالها لسابقتها، تختلف عنها وتتميّز بتفاصيل خاصّةٍ بها. إذا كانت ***ظلّ الريح*** تحتفي بمتعة القراءة، فإنّ ***لعبة الملاك*** تستكشف هذيان الكتابة».

The Independent

«يغرينا ثافون بإيقاعه السرديّ الذي لا هوادة فيه، مثلما لا يستطيع كاتبٌ آخر فعله. إيقاعٌ مليءٌ بالإلهاء السحريّ والخياليّ».

The Guardian

«إنّ ولع الكاتب بديكنز، الذي يتجلّى على امتداد الرواية كلّها، يدفع الجميع للإيمان بقوّة انتقال الكتب. ***لعبة الملاك*** هي وليدة اتِّباع نهج ويلكي كولينز وتشارلز ديكنز ومعاصريهما، ما يجعلها تقدِّم شيئًا أصيلًا كلّيًّا ومؤثّرًا بشكلٍ خارق ويراعي توقّعات القارئ حتّى النهاية».

The Observer

«ثافون أستاذٌ في فنون الاستحضار. إيمانه بقوّة الخيال مقنعٌ ومؤثّر».

Financial Times

«سيعثر القارئ الذي هام في ***ظلّ الريح*** على مقبرة الكتب المنسيّة من جديد، والتي تذكِّره بإيكو، حيث إنّ الكتب الموجودة في مكتبةٍ متاهيّة هي التي تختار قرّاءها. استعراضٌ قوطيٌّ مذهلٌ ومحموم».

Spectator

«كلُّ الذين أحبّوا ***ظلّ الريح*** لن يستطيعوا مقاومة ***لعبة الملاك***. الحلقة الثانية من الملحمة، تدور في برشلونة أيضًا، وإن في العشرينات من القرن الماضي، تعيدنا إلى العالم القوطيّ والغامض لمقبرة الكتب المنسيّة، حيث يعقد الكاتب الشابّ دافيد مارتين عقدًا مستحيلًا: مقابل حصوله على الحياة والثروة،

عليه أن يؤلّف كتابًا يغيِّر الحيوات. إنّها رواية ثمينةٌ ببساطة، وتستحقّ أن تسهر ليلةً كاملةً لإنهائها».

The Bookseller

«أحداثها قوطيّةٌ وسابقةٌ لأحداث ***ظلّ الريح***، متاهةٌ من الغموض مكتوبةٌ بلمسةٍ رفيعة، ستبقى مذهلةً ومربكة، وستسحر عشّاق ثافون وقرّاءه الجدد على حدٍّ سواء».

Publishers Weekly

«لا شيء كما يبدو عليه في هذه الرواية الثانية لكارلوس رويث ثافون، وهذا ما يعطيها سمةً إضافيّة لتكون متميّزة. فعلى الرغم من أنّ أحداثها تُعَدّ سابقةً لـ ***ظلّ الريح***، فإنّ ***لعبة الملاك*** تعبِّر عن نشوة السرد ومتعة الأدب، ومن الممكن أن تقرأ بوصفها عملًا مستقلًّا».

Sunday Telegraph

«روايةٌ أخرى ممتعةٌ وذات نزعة خياليّة خارقة لمؤلّف ***ظلّ الريح*** الكتاب الأكثر مبيعًا. تتشكّل حساسيّة رويث ثافون من دمج إدغار آلان بو وخورخي لويي بورخيس، واللغز الأدبيّ بيريث ريبيرتي، وبعضٍ من أدب ستيفن كينغ».

Kirkus Review

«روايةٌ مشوّقة بشكلٍ لا يُصدَّق، تذكّر بأجواء برام ستوكر وسعة اطّلاع بورخيس. حكايةٌ تشمل حبكاتٍ فرعيّة: رويث ثافون يتألّق في شتّى الأنماط الأدبيّة».

Lire

«ثافون حكّاءٌ بديع، تجمع ***متاهة الأرواح*** ما بين المدرسة التقليديّة وما بعد الحداثيّة لتقدِّم مديحًا آسرًا بحقّ الأدب. . . حكايةٌ رائعة، تدمج الدراما بالدسائس والعاطفة».

Mail on Sunday

«مثيرةٌ وآسرة. ***متاهة الأرواح*** هي الرواية التي يتوه فيها القارئ، وتوقظ فيه تجربة القراءة التي نذكرها منذ الطفولة: أن ننغمس كلّيًّا في عالمٍ خياليّ».

Irish Times

«هل تتصوّرون روايةً تجمع ثربانتس وبورخيس ولويس كارول؟ ***متاهة الأرواح*** هي ثناءٌ جديد للأدب قبل كلّ شيء. وخاتمةٌ تسبِّب الدوار باحتواء القصص بعضها بعضًا. وها نحن تهنا. وهذا من حسن حظّنا».

L'Express

«ما يزال كارلوس رويث ثافون يثبت أنّه قديرٌ مطلقٌ في الغموض والإثارة والحبكات. ساردٌ مخيف ويتألّق أكثر ممّا مضى في ***متاهة الأرواح*** حيث يجعلنا نقلِّب صفحات روايته بحمّى التشويق».

Lire

هذا الكتاب

«مدينةٌ من بُخار» هي امتدادٌ للعالم الأدبيّ الذي دارت «مقبرة الكتب المنسيّة» في فلكه، سواءٌ من حيث تطوُّر جوانب مجهولة لبعض الشخصيّات، أم من حيث التعمُّق في تاريخ بناء المكتبة الأسطوريّة، ومن حيث إنّ الموضوعاتِ والدوافعَ وأجواءَ هذه القصص مألوفةٌ لدى قرّاء الملحمة.
كُتّابٌ ملاعين، معماريّون حالمون، هويّاتٌ مُنتَحلة، أبنيةٌ عجائبيّة، سلاسةٌ في الوصف شديدةُ الإغراء، براعةٌ في نسج الحوار... ولا سيّما الوعد الذي تقطعه الحكاية، والقصّة، وفعل السرد بحدّ ذاته، باصطحابنا إلى عالمٍ جديدٍ ومذهل.
هي مجموعةٌ قصصيّة تقدِّم عيّنةً من مهارة كارلوس رويث ثافون في بناء أدبٍ متميّزٍ ومتفرّد، نرى فيه ملامح رواية النشوء، ورواية الإثارة، والرواية التاريخيّة، والقوطيّة، والرومانسيّة، من دون أن تغيب عنها لمسته الفنيّة المبهرة لنموذج الحكاية داخل الحكاية.

الغلاف : سكينة صلوَن



